
الكتاب الذهبي
لغة الآي آي
(١٢ قصة قصيرة)
يوسف إدريس

حالة تلبس



حينما ضبط المنظر ، لم يكن عميد الكلية هو الذى غضب والتهبت الدماء فى عروقه ، ولكنه الطفل الذى ولد وتربى فى « سوهاج » ومنذ ان بدأ يعى فهم أنه قد يكون مباحا للرجل وعيبا للشباب ومحرما تحريما قاطعا على الاطفال ولكنه للنساء جريمة ، أكثر من جريمة ، قد يوازى هتك العرض ، فما بالك وهى ليست رجلا ولا طفلا ولا حتى سيدة ولكنها فتاة ، بنت لا تتعدى السابعة عشرة بأى حال ٠

وحين وصل الغضب قشرة العقل المكتسبة ، وانفعل العميد الذى فيه ، كان أكثر ما ضايقه انها لابد فى السنة الاولى ،طالبة جديدة ، يعنى بالامس فقط كانت طفلة فى ثانوى ٠

ورغم كل غضبه لم يتحرك الا حينما تحرك الوالد الذى فيه وتململ ، وأدرك كالمدهوش ، انها تكاد تكون فى سن ابنته (لمياء) ، حينئذ فقط استدار مغادرا النافذة فى طريقه الى حيث أزرار الجرس الموضوعة فى مكانها الخالد الذى يتوارثه العمداء فوق المكتب ٠

وربما لو كان فى الحجرة أحد ٠٠ أستاذ أو لجنة أو حتى لو كان فى انتظار مقابلة كائن ما لكانت الحركة قد اكتملت [illegible]



حتما قد وصلت الى الزر .. والساعى المرابط أمام الباب حضر والفصل لاسبوع أو لاكثر من الكلية او حتى الزجر والضرب قد حدث .

ولكنه كان وحده في حجرة العميد الواسعة المهولة ذات النافذة الجانبية الضيقة . والحجرة المهولة تغرى بالتريث ، والنافذة الضيقة تغرى بتدقيق النظر ، وفى حالته كان الاغراء كبيرا باعادة النظر .

وعاد الى استمرار النظر .

الحجرة فى دور أول لا يرتفع عن الارض الا قليلا . والفناء الخلفى الذى تطل عليه النافذة الجانبية خال تماما من الطلبة فهو فى العادة مكان غير مرغوب من الطلبة ، والساعة اقتربت من الثالثة . واليوم الدراسى انتهى ولولا مراجعة جدول الامتحان لما كان هو نفسه قد بقى الى هذا الوقت ولما قام من النافذة منهكا يتثاءب ويتمطى ويأخذ فكرة عن الجو بالخارج ، ولما شاهدها ، تلك الطالبة الصغيرة التى ما ان بدأ عقله يتساءل عما أتى بها الى هذا المكان المهجور ، وبعد انتهاء الدراسة ، حتى كان الغضب قد اجتاحه ، اذ وجدها بكل بساطة وتحت أنف نافذته تخرج بل اخرجت فعلا علبة سجائر من حقيبة يد مستطيلة ضخمة وعبثت بكراريس المحاضرات المختلطة بأدوات التجميل قليلا ومالبثت أن أخرجت علبة كبريت أيضا .

طالبة ، واضح تماما انها لابد في السنة الاولى ، تدخن وتحمل معها فى الحقيبة علبة سجائر وعلبة كبريت ؟!

هكذا من النظرة الاولى تفجر الغضب .

ولكن النظرة التالية كانت نظرة مذهول يستبعد تماما أن يصدق أن شيئا كهذا ممكن ان يحدث ، مؤجلا التصديق الى أن يراها فعلا وهى تدخن .. خاصة والفتاة كانت لاتزال ممسكة السيجارة فى يد والكبريت فى يد أخرى وكأنما لم تقرر بعد ماذا تفعل بشأنهما .

وتأملها العميد ، كانت طالبة عادية لايمكن اذا رآها فى مجموعة أن تستوقف النظر ، شعرها مهوش على طريقة الجيل الجديد فى الاناقة وعيناها ذابلتان لابد من المذاكرة والسهر ، متكئة تكاد تكون مستلقية بعد يوم متعب حافل على الأريكة

المهملة التى لا يستعملها احد ، ولكن شبابها الفائر يكاد يقفز من وجنتيها المحمرتين رغم قمحية بشرتها ، ومن جسدها البارز فى اكثر من مكان من ملابس الطالبة الرخيصة التى ترتديها .

وبوغت العميد حقيقة وهو يلحظ فجاة انها بأصابع اليد الواحدة .. اصابع تلون سبابتها آثار الحبر قد فتحت علبة الكبريت ، وباليد الاخرى ، بيد ثابتة لا اضطراب فيها ولا خوف وبحركات تلقائية ليس فيها من مجهود الارادة شئ . ثبتت السيجارة فى فمها وادارتها دائرة كاملة بين شفتيها وكأنما لتبلل ، كالمدخنين العتاة ، فمها (الفلتر) ، وبنفس التؤدة والتلقائية وبضربة لاأثر للتدبير فيها اشعلت العود ولم تقربه من السيجارة فى الحال ، اهملته بين اصبعيها قليلا وكأنما تستمتع برؤيته يحترق ، ثم ما لبثت ببطء ، ودون أن تنظر ، وبعينين هائمتين فى جدار الفناء البعيد ، أن قربت العود بحيث لامست شعلته طرف السيجارة دون أن تحيد يمينا أو يسارا وكأنما يدها مدربة على الطريق ، وجذبت نفسا واحدا اشتعلت بعده السيجارة ، وبالدخان الخارج بعد ابتلاعه ، من فمها ، اطفأت العود ، ثم لم تلبث أن القته فى اهمال غريب فوق عشب الممشى القريب .

وجن جنون العميد ، انها مدمنة داعرة الادمان أيضا ، انه هو نفسه يدخن ولا يفعل شيئا كهذا ، انه يشعل السيجارة كلشنكان ويدخنها كيفما اتفق ، ولكن هذه ، متى وكيف وفى اى بؤرة فساد قد تعلمت كل هذا . انها حتى لا تشعل الكبريت كالنساء التى قرأ مرة أنهن يشعلن العود الى الناحية البعيدة عنهن خوفا غريزيا من ناره على ملامحهن وشعرهن ، وفقط بعد الاطمئنان الى شعلته بعد خفوتها يجرؤن على تقريبه منهن اما هذه ال .. الطالبة . طالبة أولى هذه .. لا تخاف العود ولا النار ويبدو انها لاتخشى شيئا فى الوجود .. انها لايمكن أن تكون فى السابعة عشرة .. سن ابنته .. لابد انها أكبر بكثير .. بسنتين لابد أو حتى بأيام .. انها جرثومة ، ان الفصل اسبوعا واحدا لايكفى ابدا .. الرفد النهائى هو ما يجب عمله لا أقل من الرفد النهائى .

ولكنه لم يعرف كيف حدث هذا فقد وجد شيئا اكبر بكثير من كل غضبه وكل حماسه للضغط على الجرس واستدعاء الساعى واتخاذ بقية الاجراءات ، شيئا اجبره على أن يقف فى مكانه لا يتحرك وينتظر ويراقب ويعاود الرؤية .

ورفعت الفتاة يدها الى فمها مرة اخرى ، ولكنها انتظرت قليلا بفم السيجارة قريبا من فمها ثم بدا وكان الوقت قد حان وهكذا ببطء لاتلكؤ فيه أسبلت جفونها حتى كادتا تغلقان تماما ثم ضمت شفتيها حتى ضاقت الفتحة بينهما وتكرمش غشاؤهما ومن الفتحة الضيقة ادخلت فم السيجارة ، وجذبت نفسا ، لا لم يكن جذبا ، كان امتصاصا ، لبس امتصاص دخان ، لكأنه رشف أعظم سعادات البشر ، رشفة ببطء وباستعذاب وبملايين الافواه ، كل خلية من خلاياها بدت وكأنما أصبح لها فم تجذب به وترتشف ويتموج جسدها كله تموجا غير منظور ، وعلى دفعات وكأنه عطشان يجرع اعذب الماء ويريد أن يستمتع بكل قطرة من قطراته ، حتى اذا ما بدا ان كل دقيقة فيها قد اخذت كفايتها وظفرت بسعادتها الخاصة ، رفعت السيجارة عن فمها ببطء ، وكبرياء وعينين قد فتحتا ببخل شديد وكأنها تخاف أن تهرب من فتحتيهما النشوة .

واستحال غضب العميد الى لحظة صدمة مفاجئة تكاد تتحول الى ذعر .. خوف شديد أن يستمر فى الرؤية ، خوف الخائف على نفسه هو من استمرارها ، والفناء بدا له كالبقعة المهجورة المقطوعة عن العالم ، يحفل بسكون ، وزمتة ، ورائحة ربيع مقبل مخيف ، وقرب أيام نهاية العام والامتحان ، والفتاة كأنها جنية من جنيات الظهر انشقت عنها خرابة الفناء فجأة ، متكئة تكاد تكون مستلقية فوق الاريكة ذات الحديد المتراكم فوقه الزمن والصدأ ، الناقص مقعده خشبة الوسط .

وبرهبة المذهول هذه المرة راح يترقب كيف تخرج النفس .. فمها المضموم أبقته مضموما هنيهة ، ثم فتحته نصف فتحة وبحركة فيها كسل انثوى ضاقت له عيناه راحت توسع من فتحته قليلا قليلا فى نفس الوقت الذى كان صدرها قد بدأ

يتسع وكأنها بسبيلها الى التنهد حرقة ولوعة ، ربما على فراق تلك السحابة الدخانية الصغيرة التى فجرت فى جسدها المستلقى تعبا واسترخاء حيوية واضافت الى صباها صبا ، يتسع حتى ليجذب الدخان الى اعمق اعماقها ، ليلامس أقصى ارجائها وليلتقى بكل جزء من صميم صميمها لقاء الوداع ، وفى نفس الوقت الذى يعود فيه الصدر الى وضعه الطبيعى وحجمه ، يكون الدخان هو الآخر قد بدأ يخرج ، من الشفتين المنفرجتين أضيق اوسع انفراج .. تخرج دفعاته الاولى مرسلة على سجيتها دون ضغط أو اكراه، تصنع دوائر لولبية وضبابات ثم تتلوها الدفعات الخارجة بالارادة متأنية موجهة قد شحب دخانها وتغير لونه وكأنما امتصت منه كل النضرة والحياة .

قطعا لابد من فصلها . فى منتصف السيجارة تماما والجريمة سيدق الجرس ويهمس الى الساعى ويذهب الرجل ويطبق عليها وساعتها سيعرف اسمها ويفصلها .

ذلك كان قراره ولكن ما ضايقه فى الحقيقة انه بدا وكأنه قرار شخص آخر ، بعيدا عنه جدا ، ذلك البعد الذى أصبح بين عقله وارادته ، ارادة لايدرى لماذا هى رخوة لا تستطيع أن تنفذ امرا وكأنما هى واقعة تحت تأثير مخدر سخيف ملعون لايعرف كنهه ، ارادة لم تعد تستطيع ان تفعل الا ان تنظر وتستمر تنظر .

وأخذت الفتاة نفسا آخر ، وهذه المرة اخرجت دخانه من فمها وأنفها معا ، أنف فتحاته صغيرة دقيقة كأنها براعم فتحات يخرج منها الدخان باهتا معتصرا ليصطدم بالدخان الخارج من الفم الضيق المضموم المكرمش ..

واحس العميد بأشياء داخله تتنبه . وتلفحه سخونة ليس مبعثها الجو .. وسرعة فى دقات القلب لا علاقة لها بمرض الضغط ..

وتوالت الانفاس ، وفى كل مرة تجذب النفس على مهلها وبتلذذ سعيد تنغلق له عيناها ، وكأن شفتيها المضمومتين على فم السيجارة تبتهلان لشىء أو ترتعشان [illegible] السعادة

ربما أو أكسير الحياة ويسترخي جسدها ويتدغدغ للنفس ثم تبدأ عملية الاخراج . وتفعل هذا كله باندماج شـــامل تام وبلا ارادة .. وبطبيعية لا تكلف فيها ولا اصطناع ، والانفاس تتوالى ويستحيل ما يحسه العميد الى تيار غريب يجوب جسده كله مع كل نفس ، ولا يوقظه من تعب يوم أو انهاكه ولـكن يوقظ اجزاءه واجهزته من رقدة عمر طويل . ويمحو هكذا فى ومضة آثار سنين وامراض ومشاغل وحياة تصـــلبت وجفت واستحالت الى درب ضيق محدود فى ناحية منه زوجة جف منها ماء الحياة ولم تعد تفعل الا أن تناكف وتضايق وفى الناحيـة الاخرى عمل وروتين لاجدة فيه ولا أمل ، وصراع ، وما بينـه وبين رئيسه مدير الجامعة من حزازات ، وهو كالبندول رائح غاد بينهما ، الكلية تدفعه الى البيت والبيت يدفعه الى الكلية ، بندول عجوز مصاب بأكثر من مرض ووجع وفى صدره أحقاد.

ومنتصف السيجارة الذى كان قد حدده وصلته الطالبـة ولكنه كان فى حال لم يعد يعرف فيها ان كان مايحسه سخطا أم اعجابا أو ان كان انفعاله انفعال نشوة أم اشمئزاز ، كل ماأصبح يفعله ، حتى ولو لم ترض ارادته ، أن يظل يرى الفتاة ويراقبها .. جسده نفسه ، عيناه ، أنفاسه ، لسانه الذى بدأ يجف فى حلقه ، ساقاه اللتان شدت عضلاتهمـــا واشرأبت ، كلها تراقب ، كلها مع الفتاة وسيجارتها فى التحام لا يمـكن فصله أو انهاؤه ،التحام متواصل حى ينبض نفس نبضهـــا حين تطبق بفمها الضـــيق على فم السيجارة وتجذب وتدوخ بالنشوة ثم حين تفتحه نصف فتحة وبه أو بأنفها او بهما معا تخرج اللوعة والحرقة والنفحات الهاربة وفى أعقابها تلك التى تدفعها لتخرج برفق وحنان وتؤدة .. نبض متوال متسارع ، والتحام ذو حرارة مستمرة متزايدة تتصـاعد الى أعلى مراتب عقله وتذيب ، تذيب أشـياء كثـــيرة ، تذيب أفكارا تحجرت كالمومياء المصـــبرة وأصبحت حكما وعقائد ، وتفتح منـاطق حاصرتها التقاليد وعزلتها ، وتفد الافكار بســـهولة وتنطلق بسهولة ويبـــدو المستحيل ممكنا ، ولماذا الحرس والسـاعى والتأنيب والفصل ؟ ألأنها تدخن وسنها سبعة عشر عاما ولانها

طالبة وما الفرق بين أن تدخن وهى طالبة وتدخن وهى خريجة وكله تدخين فى تدخين ، ولماذا نحرمه على جسد شاب فائر ، ونحلله لســـيدة أو لعجوز تسعل وتكح وتبصق كلما جذبت نفسا ، أليس هو قائل نفس المبادىء وهو فى العشرين والثلاثين حين كان فى بعثته يرى أن مشكلة مجتمعه الاساسية أن أفراده يحيون فى عصر بتقاليد قرون مظلمة مضت ، وان بلاده لا يمكن أن تصل الى أى تقدم علمى أو صـــناعى أو حضارى الا اذا تم التحرر وعاش الناس فيه بتقاليد عصرهم نفسه وقيمه وأنواع حرياته .. باعطاء أفراده حتى حرية الخطأ وألا نمنعهم بالنصح والزجر عن خوض التجارب ونورثهم صوابنا نحن وخطأنا بل نتركهم لكى يستخلصوا هم من تجاربهم مايرون أنه الصـــواب وما يرون انه الخطأ .

وبدأ جسد الطالبة الصغيرة يتململ ويتلوى ، ونهمها الى جذب الانفاس يشتد ويتلاحق وكان فى داخلها تحفر فجوات هائلة تحدث فراغات سريعة مذهلة تطلب الامتلاء لا بالدخان ولكن بالمتعة الحادثة من حريتهـــا فى أن تنفـــرد بنفســـها وبالسيجارة وتمتص منها ما تشاء وتبتلع ما تشاء ، والعميد يحس بجفاف ريقه يزداد وحنجرته تتسع وتزداد قدرتها على الرنين وكأنها تستعد لاطلاق صرخة العمر ، وعرق غريب ذو رائحة نفاذة لم يشمها من سنين ينبت تحت ابطيه ، وعـــرق آخر اكثر غزارة يبلل وجهه ويضبب زجاج نظارته حتى ليخرج منديله بسرعة المحموم ويمسح زجاجها لكى لاينقطع أبدا ابصاره والدنيا حافلة بمؤامرة صمت تام ، سكون غريب لايمكن ان يكون الا بفعل قوة خارجية قاهرة ، سكون مركـــز فى تلك البقعة من الفناء الخلفى ، سكون ليس خارجه سوى العـــدم ، سكون عالم خال من الحياة تماما ليس فيه حيا سواه وسواها. هى فى اقصى درجات الاستمتاع وهو فى اقصى درجات الانفعال .. وبينهما ، تفصلهما تماما ، وتربطهما تماما ، تلك السيجارة. والحياة تبدو حلوة جدا ، كل لحظة فيها عمر بأكمله ، وارادته قادرة على اكتساح الجبل ، ولا شىء فى الوجود مستحيل ولن يرضى بأقل من اجمل وأغنى بنات العالم زوجة له .. وخمس سنوات فقط يصبح فيها اعظم علماء مصر بل الشرق والغرب

معا وما ذا تكون جائزة نوبل مكافأة له • وحقيقة ما هـــذه الحزازات بينه وبين المدير اليس هـو أكبر منها وأقدر بكثير ولماذا الحزن والمرارة لكل مافات والانى أروع منه بكثـــير . ولماذا التعنت مع استاذ القسم المساعد ، لماذا لا يعطيه الفرصة انه شاب ومن حقه ان يطمح الى كرسى الاستاذ •• المشـــاكل نحن نخلقها حين نفتقر الى التفاؤل والتفاؤل هـــو الارادة . وبالارادة القوية تصبح الحياة كالبساط الممهد ، بساط الريح •• عش واضحك وامـرح واطلب القمر يأتيك •• أرده ارادة قوية حقيقية يأتيك •• وكله •• كل مافى الحيـاة آت لاريب فيه ••

واقتربت السيجارة من نهايتها ، وتلاحقت انفاس الفتاةفى صعود القمة ومضى جسدها يتهدج وقد أصبح كله صـــــدرا يلهث وشفاها بدأت من الجرعات المتلاحقة ترتعش وتضطرب ، اضطراب الحمى ، حمى شملته هو كله •• والينبوع الخفى فيه يتفجر بأقصى قوته ويصل به الى قمة الانفعال تلك التى ينتفى معها الزمن ، ولو للحظات يتوقف الزمن ، يغـرب الى ما وراء الادراك ، ويصبح الحاضر مجرد لون • لون أحمر مدمم فى لون الشفق •

وأخذت الفتاة من السيجارة التى كادت نارهـــا تحرق الاصابع نفسا ، كآخر شهقة ثم سكنت تماما وكأنما غابت عن الوجود • ومن بين أصبعيها اللذين انفرجا استرخاء انفلتت بقية السيجارة واستقرت ذابلة ممصوصة مغضنة على الارض •

وأحس العميد بعد الرعود والانفجارات والحمى بســـلام مفاجىء ممتد كأنه سيبقى الى الابد ، يشمله ويجعله يتمنى ان يكف الكون عن حركته لتبقى اللحظة فى ديمومة لاتنتهى ••

ولكن الديمومة انتهت ، فلأمر ما بدت الفتاة وكأن العيون المستترة التى تحس الخطر دون أن تراه قد ادركت شيئا فقد ضمت جفنيها بشدة ثم فتحتهما على آخرهما لىلتقيا ، هكذا ، كالطلقة المصوبة بدقة ، بعينى العميد فى تطلعهما من خلف زجاج النظارة •

وللازمن التقت النظرات ، ولكنه لم يكن لقاء ، ولا وقتا ،

ولا شىء يقاس ، كان ارتطاما ، سقوطا من حالق ربما ، ماء باردا كالثلج ، برودة الواقـع الذى ترتجف لهوله المدارك ، الثلج الصاعق •

وتكهربت النظرتان بخجل ، لا قبل لأيهما به ، خجل سريع مغور ، جارح •

وفى جزع هائل انتفضت الفتاة جالسة وقد غاص قلبهـــا وبيد ترتجف بالرعب دلقت كل محتويات حقيبتها لتستخرج فى لمح البصر كتابا ، تعود معه تنكب ، كالطالبة المجتهدة عـلى صفحاته •

وكانت حركته ليعود عميدا أبطأ •• ممزوجة بخجل أعظم وبتانيب اشد هولا ، وتحرك خافض البصر طويلا نحيلا عجوزا محنى الاكتاف حاملا متاعب الدنيا كلها من جديد ، وليس فى رأسه واضحا سوى الواجب ، ومالابد من عمله •• والدائرة البيضاء الملساء الصغيرة فوق مكتبه ، والعقاب •

وباصبع عادت اليها كل عصبيتها وكأنما تمتد من صـــدر ضاق بالدنيا ، ضغط على زر الجرس •

ولكن اصبعه كانت لا تزال بها بقية من ارتعاش ، ارتعاش ليس الكبر أو الضغط سببه •

ديسمبر ١٩٦٢







ماكاد آخرهم يخـــرج ، ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة كالقطار المزدحم حين يصل الى محطة النهاية ، حتى التفتت « مصمص » (وهو ليس اسم دلع ولكنه اسمها الحقيقى) الى سكينة التفاتة حادة ، وقالت بصوت عال :

– بقى اسمعى يا ..

واحتارت قليلا هل تقول لها يابت ياسكينه ، أم سكينة فقط .. وسكينة كان اسمها سكينة وهى سكينة فعلا . وهـــو اسم قد يبدو ريفيا ولكنها لم تكن ريفية النشأة أو الملامح . كانت من مدينة ما ، واحدة من عشرات مدننا انصاف الكبيرة مؤدبة جدا خجولة جدا ورقيقة ايضا . وكانت تحتل السرير المجاور لمصمص المرأة الضخمة الكبيرة الصدر والثديين التى يميل لونها الى السمرة ، ودائما ترتدى قميص نوم ابيض .

والسريران كانا فى عنبر واحد من العنابر الكبيرة التى تحفل بها مستشفياتنا العامة والمركزية والجامعية والصدرية ، العنبر المعهود ذو الاثنين والعشرين سريرا .. عنبر الحريم يسمونه .. له تومرجية سليطة اللسان ومنفوخة الجسد مكورة كالبطة ، وتومرجى اعمش مفروض أن لا يدخل العنبر وأن يقتصر عمله

على المطبخ ودورة المياه ، ولكن أحدا لم يعلن يوما هذا المفروض وأحدا لم ينفذه ٠

وكانت سكينة الضعيفة الرقيقة الحنونة التى تحـس اذا اطلت النظر اليها أو عمقته انهناك فعلا اناسا ضعفاء محتاجين الى الشفقة . كانت مريضـة بمرض مزمن ولها فى المستشفى ثلاثة أشـهر وأمنيتها الكبرى أن تغـادره وتخرج ، ولكنهم لايخرجونها ولا يصرحون لها بالخروج ولا يفعلون هذا بعنف أو بحزم كما قد يعتقد البعض ، أنهم يفعلـونه بانصـاف الابتسامات أحيانا وبهز الرءوس والطبطبة أحيانا أخرى ٠٠ وأحيانا بمجرد القول : حالا ٠٠ ان شـاء الله تخرجى ٠٠ أما سـبب بقائها أو ابقائها فهو أن مرضها من نوع غريب يحلو للاستاذ أن يحاضر طلبته واطباءه الصغار عليه ٠٠ وان يريه لزملائه الكبار ، كما لو كان يريهم قطعة نادرة ضمن مجموعة أصداف أو طوابع بريد يقتنيها ٠٠

وسكينة لم تكن مقطوعة من شجرة ٠٠ كان لها اخوة ٠ فى الحقيقة أخ واحد غير شقيق واختان ٠ وكان لها خالات وعمات وقريبات كأى انسان منا وكل انسان ٠ ولكن رغم هـذا كله فلم يكن لها زوار بالمرة ٠ طوال الاشـهر الثلاثة التى مكثتهم بالمستشفى لم يزرها أحد ٠٠ من يوم أن أتى بها أخوها وأودعها العنبر لم تر وجهه ٠ تلك حقيقه تعرفها هى ٠٠ ويعـرفهـا الجميع حتى التومرجية السليطة اللسان تعرفها ٠٠ وقد تكون مشكلة الخروج تلح على سكينة فى أحيان كشىء لابد منه ولابد من حدوثه ولابد ان تكلم الطبيب الكبير بشأنه ، ولكن مشكلتها الاكثر حدة فى الواقع أن يزورها أحـد ٠٠ أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد يدا توقظها من النـوم أو الغفوة وتقول لها : قومى ياسكينة ٠٠ جالك زوار ٠٠

طوال أيام الجمع والاثنين ، والحقيقة طوال أيام الاسبوع يفد العشرات والمئات والآلاف على المستشفى ويوزعون على عنابره ثم على اسرته وقد يخص كل سرير زائر أو خمسة أو عشرة ٠٠ ماعدا سريرها هى لم يكن يهوب ناحيته أحد ، أو للدقة كان

زوارجارتها مصمص يتخذون سريرها كأريكة يجلسون عليها وهى من خجلها لا تعترض أو تأتى بحركة تسبب حرجالاحد كانت تغادر الفراش نهائيا وتذهب تتمشى فى الطرقة أو تخرج الىشرفه العنبر القذرة هناكحيث تتخذ مستودعا لاكوام الزبالة وقشر البرتقال والموز واليوسفندى الآتى لابد مع كل زيارة ٠

وهناك ٠٠ فى تمشيها هذا كانت سكينة تحزن وتنقبض وتحس أنها مظلومة وأن لابد ثمة خطأ فى الكون جعلها تبقى بغير زوار ٠٠ ان أخاها باستطاعته أن يخطىء مرة ويزورهـا وكم زارت هى أخوتها وبنات خالاتها وكان واجبهم فى هـذه الحـالة أن يردوا الزيارة ٠ ماذا حدث حتى جمد قلوبهم وقساها ؟ ماذا حدث حتى نسيها الجميع هكذا ونسوا أنها فى مستشفى ! ماذا حدث حتى تنقطع صـلتها هكذا بعائلتهـا واقربائها وحتى بصديقاتها وبالدنيا كلها ؟ لم تكن تدرى ٠٠ حتى مجرد ارسال خطاب ٠٠ ما أرسل لها أحد خطابا أو بعث بسلام ٠٠

احساس لم يكن يشاركها فيه أحد ٠٠ كانت أعمق أعماق قلبها هى التى تكتئب وتحزن فقط ٠٠ أما كل ما على السـطح من وجه وملامح فقد كان يلتف دائما بابتسامة لا فرق بينها وبين مئزر الصوف الذى تتلفع به ٠٠

وطالت المدة ثلاثة أشهر ٠٠ وأربعة وخمسة ، والمـرضى يتغير معظمهم حتى لم يبق من القدامى سوى جارتها مصمص والوضع على ماهو عليه ، وضع عجيب غريب ٠ فهى صحيح ضيقة بالمستشفى والبقاء فيـه تريد بشق النفس أن تخرج وتغادره ٠ ولكنها فى نفس الوقت ، واذا ماسألت نفسـها لا تعرف أبدا لمن والى أين تذهب وماذا بالضبط ستفعل ٠٠ لقـد كانت قبـل دخولها تحيا مع أخيها تخدمه فى انتظار أن يتزوج هو أو يأتيها هى عريس ، ولكنها مرضت وكانت تقضى الليل كله تنهج وتكح حتى ضاق بها الاخ وانتهز أول فرصة وأدخلها المستشفى ربما كى لا تعالج بقدر ما يتخلص منها ومن حشرجات انفاسها ٠ بل انها سمعت أنه بعد دخولها المستشفى تزوج وعزل من البيت ٠٠ وشقيقاتها كلهن متزوجات ، وهى

ليست جميلة حتى يرحب بها زوج أى أخت بل لقـــد ذبلت وكبرت حتى على الزواج فالى من تذهب والى أين ؟

وضع عجيب غريب ، فهى ضيقة بالمستشفى ضيقا لا حد له ومستسلمه لهذا الضيق والحياة فى المستشفى استسلاما لا حد له أيضا ، كالسجين الذى يتوق الى الخروج من السجن الى الحياة والحرية ولكنه حين يجد أنه اذا خرج فلن يعرف ماذا ولا كيف يفعل بحريته تلك ، يستسلم للسجن • يضيق به ويستسلم له ويكاد يجن بين الضغطين ••

ولم تأت المسألة فجأة •• بل والى الآن لم تفكر فيها سكينة تفكيرا جديا أو تدبرت مافعلت ، ولكنها هكذا جاءت •• مصمص كانت زوجة أحد المعلمين الكبار الذين لا يقل عدد أقربائهـــم وأنسبائهم وأولادهم ونسائهم وبناتهم عن المئات بأى حال من الاحوال ، ولهذا كان لايمر يوم دون ان يزور مصمص لا أقل من خمسة أو ستة زوار • ويوم العطلات والاعياد يرتفع الرقم حتى يكاد يصل الى الخمسين •• وكان يبدو على مصمص أنها فى الوقت الذى تعتب فيه على فلانة الفلانية لانها لم تزرها مايكاد الزوار يغادرونها حتى تلهث تعبا وحتى تغمغم ببرطمة لا يفهم منها سوى الضيق الشديد بالزيارة والزوار ، والمسألة بدأت بأن راحت سكينة تسأل مصمص عن الزوار اذا قدموا ، من هم • وماهى درجة قرباهم لها • وماذا يشتغلون ، ولم يكن الامر مجرد سؤال • دأبت سكينة على ملاحظتهم بدقة ومعرفتهم بالاسم حتى لتطفح السعادة من وجهها حين تقول لمصمص بعد خروج زائر ••

— مش ده كان مصطفى ابن خالتك اللى بيشتغل فى السكة الحديد ••

فتبهت مصمص وتقول :

— الله •• وانتى ايه اللى عرفك ؟

حينئذ تحس ســـكينة الناحلة الهادئة الساكنة بســعادة داخلية لا حد لها •• غير معقول بالمرة أو مقبول فقد أصبحت لمجرد أنها عرفت من الزائر وخمنته وجاء تخمينها بالضـــبط مطابقا للحقيقة •

ولكن هذه السعادة ، بالتكرار • لم تعد تحدث ووجـــدت

سكينة نفسها مدفوعة الى خطوة أخرى كى تحس بنفس سعادتها السابقة • فبدأت تقدم مساعدات وتسرع مثلا وتحضر كراسى لزوار مصمص — أو اذا أرادت الاخيرة ان تعزم عليهم بالقهـــوة أو الشاى أو الغازوزة أسرعت سكينة الى البوفيه •• تحضر الطلبات بنفســـها •• وكانت مصمص تاخـــذ الامر فى أوله باعتبار أنه نوع من الطيبة من سكينة لا أكثر ، ولكنها بدأت تعجب فعلا وقد راحت سكينة تقوم باعمال غير معقولة أبدا تاخذ الاطفال من الامهات الزائرات وتداديهم أو تذهب بهم الى دورة المياه ، وتلعب مع الابناء الكبار وتقول لهذا الزائر •• والنبى وحياتك ابقى سلم لى على فلانة وفلان وكأنهم اقرباؤها هى ••

بدأت مصمص تستعجب ، ومصمص لم تكن سهلة ولا طيبة ولا مسكينة ابدا انها جهنم الحمراء اذا انفتحت واذا رأت فى الامر مايريب •• وكانت سكينة قد زودتها فى نظرها كثيرا وبشكل اصبح لا تفســـير له ولا تبرير ، تجلس مع الاقرباء والاصهار طوال الزيارة•ولا تغادرهم للحظة وكأنها منهم وعليهم يتحدثون عن أدق أمورهم العائلية الخاصة فلا تخجل ولا تبتعد• بل أكثر من هذا تهتم بها وتناقشها مناقشة المتحمس الغيور ، وتبدى الآراء أيضا •• وتنتظر مصمص على أحر من الجمر أن « تحس » سكينة مرة فتقوم أو تغادر الفراش أو على الاقل تولى انتباهها الى الناحية الاخرى بلا فائدة اذ كانت سكينة لاتفعل شيئا من هذا أبدا ، بل تظل طوال الجلسة باكملها وبعد الجلسة أيضا تتحدث وتعقب وتحاول أن تدخل مع مصمص فى أخص الشئون وفى الغويط • ومصمص • تكظم وتكظم • فصحيح أن سكينة تتدخل ولكنها تفعل هذا وهى راقدة فى نفس فراشها لا تغادره • بالعكس ان زوارها هم الذين يجلسون على فراش سكينة وبهذا يعطونها الفرصة للاندماج والتدخل ••

بل تطور الامر الى ماهو اكثر وبدأت سكينة تقتنص زائرا أو زائرة من الجالسين على فراشها وتنخرط فى حديث لا ينقطع معه أو معها بحيث تنتهى الزيارة وهم لم يتبادلوا كلمة واحدة مع قريبتهم مصمص وكأنهم جاءوا لزيارة سكينة أصلا •• ولقد تكرر الامر مرة ومرة ، ومصمص تكظم وتكظم الى ان



معاهدة سيناء

كان هذا اليوم الذى قررت أن تنفجر فيه ، وهكذا ما كاد آخر زائر فى يوم الزيارة يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظمه كقطار وصل الى محطة النهاية حتى التفتت مصمص الىسكينة التفاتة حادة ، وقالت بصوت بالغ العلو ..

– بقى اسمعى يا ..

واحتارت قليلا .. أتقطع العشم والعلاقة والعيش والملح مرة واحدة وتقول يابت ياسكينة ، أم تكتفى بنهرها وتقول ياسكينة فقط ، فاذا قالت لها ياسكينة فكيف تستطيع أن تصب عليها بهذه البداية مايتفجر به صدرها الضخم العالى الاسمر من غضب وضيق ، احتارت مصمص .. وكالبندقية صوبت عينيها الى سكينة وكأنما لتزيد برؤيتها لها جرأتها وعنف انفجارها .. كانت قد قررت أن توقفها عند حدها وأن تنذرها بأنها اذا استمرت فى اقتناص زائر أو أكثر من زوارها هكذا فسوف تمرمط الارض بزوارها . زوار سكينه اذا جاءوا والعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم ..

صوبت مصمص عينيها الى سكينة لتجدها راقدة فى سريرها نصف مغطاة الجسد تحملق أمامها كمن يجتر ذكرى لحظةسعيدة مرت .. وفجأة اكتشفت مصمص الجهنمية ان تهديدها الذى يكاد يفلت من فمها لا معنى له بالمرة . أجل هكذا . فى ومضة مفاجئة اكتشفت مصمص ان سكينة لا يأتيها زوار ولا ينتظر أن يأتيها احد .. وهكذا بعد أن كانت قد استدارت واستدار السرير لاستدارتها وقالت : بقى اسمعى يا ..

وحين التفتت سكينة بدهشة ونوع من الذعر تسأل : نعم ياست مصمص .. لم تغير مصمص رقدتها ولا رفعت عينيها عن وجه سكينة .. كل مافى الامر أن صوتها انخفض فجأة حتى كاد لايسمع ..

وقالت :

– لاه .. ولا حاجة .. ده كانت كلمة كده وعدت ..

قالت هذا وهى ترمق الفتاة بعينين مشتتتين فوق وجهها . يكاد يطفر منهما الدمع .. وظلت مثبتة عينيها فوق وجهسكينة لا ترفعهما وكأنها تراها لاول مرة .. رفيعة نحيلة مقطوعة من شجرة ...

الابطال هنا ثلاثة ٠٠ لا بل أربعة ، اذا حسبنا « المكنة » التى كان لها دور لا يقل خطرا عن دور الانسان ٠٠ وأول الثلاثة هو « ماشنسكى » الروسى الذى يسميه العمال فى المعسكر «ماشا» وهو أحمر الوجه فاقع الحمرة ، تلك التى تميز وتقف حدا فاصلا بيننا نحن شعوب آسيا وافريقيا وبين الاوربيين ٠٠٠ والثانى كان « بيل » أو اذا أحببت الدقة « وليم » الامريكى المعضم ، ذو القتب والنظارات والجسد الرشيق النحيل الذى ربما طار فى الهواء لو نفخته ٠ أما الثالث فلم يئن بعد أوان الحديث عنه ٠٠ أما رابعة الاربعة ، المكنة ٠ فهى آلة ضخمة جدا فى حجم البيت الصغير أو اكبر قليلا وثمنها كذا عشرةآلاف جنيه ، واصلها روسى ٠ انتجتها مصانع لينينجراد وجاءت الينا كجزء من القرض ٠ وجاء معها ماشنسكى ليديرها ويشرف عليها ومن اول يوم له فى المعسكر ألغى العمال والموظفون كلمة ماشنسكى نهائيا واستبدلوها بوعى أو لا وعى بكلمة « ماشا » ٠٠ والمكنة وماشا والمعسكر كله ٠٠ هناك ٠٠ على مدد السفر ٠٠ بعيدا جدا ، قرب حدودنا الشرقية المطلة على ساحل البحر الاحمر ٠

وذات يوم حدث للمكنة . مثلما يحدث لاى مكنة فى الدنيا أن تعطلت ووقف ماشا امامها يدور حولها ويفتح مفاتيح ويغلق صمامات . ويختبر ويجس . وأخيرا نطق وقال للمهندس المصرى المشرف على المعسكر (وهو رجل فى حوالى الاربعين وشعره أسود تماما وله كرش وكان زمان يعتبر نفسه دون جوان) قال ماشا بوجه صارم مبتئس : ان الآلة قد كسرت فيها قطعة مهمة جدا ، ولا يمكن ان تعمل الا اذا جيء لها بقطعة الغيار تلك ..

وهكذا أرسل الى مركز المؤسسة رسالة مستعجلة بطلب النجدة.. وبقى هو والخمسمائة عامل والخمسون موظفا وتكنيكيا فى انتظار رد القاهرة .. وهدأت الحركة فى المعسكر فلا حفر ولا ضوضاء آلات ولا اصوات مكن . ولا أغانى عمل . لا شيء سوى مواويل الحظ والكسل تنطلق خافتة من عقيرة حمدان ابو طالب صعيدى قنا القح والمغنى شبه الرسمى للمعسكر .

هدأوا جميعا ينتظرون ، ولكنه انتظار بلا أمل . فلم يكن أحد منهم يتوقع أو يصدق أن الروتين فى المركز سيحقق المعجزة وأن قطعة الغيار ستصل بأسرع وقت كما طلب السيد عبد الحميد فى استغاثته ..

ورغم أن رسالته أوقعت مركز المؤسسة بالقاهرة فى دوامة حرج شديد اذ أن قطع غيار هذه الماكينة بالذات لا توجد الا فى روسيا ودون احضارها من هناك مصاعب نقدية ومصرفية واقتصادية لا تعد ولا تحصى بحيث لا أمل فى حضورها قبل ستة اشهر أو سنة ..

رغم هذا ، الا ان قطعة الغيار احضرت على وجه السرعة ، وجاءت فى وقت كان المعسكر كله قد جاءه امر بالاستعداد للرحيل وانهاء العملية وقد رأى المركز ان يستغنى عن الحفر فى تلك المنطقة كلها .

اما كيف أحضرت تلك القطعة فلا أحد يدرى للآن ، ولا أحد يدرى كيف تسرب الخبر الى شركة « انترناشيونال » الامريكية ولا كيف استطاعت بين يوم وليلة ان تتصل بالمركز وتخبره انها على استعداد لتوريد قطعة الغيار اللازمة ، وفى الحال .

وبين تهييص وطبل وأغان وفرحة وصلت قطعة الغيار الى المعسكر ووصل معها المستر « وليم » أو كما أصبح هو يطالب الذين يعملون معه بأن يطلقوا عليه الاسم الذى تعود الناس أن ينادوا به وليم وهو « بيل » . ماكاد يظهر المستر بيل بالعربة وفوقها الصندوق الخشبى الضخم الذى يحوى قطعة الغيار حتى اعتقد الجميع ان خلاص ، المشكلة انتهت ، وليس هناك سوى بضع ساعات يتم فيها تركيب قطعة الغيار ويستأنف العمل سيره .

وبأنفسهم ذهب العمال وعلى رأسهم السيد عبد الحميد يزفون الخبر لماشا الذى لم يكن قد غادر من لحظتها حجرته . وكانوا يتوقعون أى شيء الا ما حدث ، الا أن يزجرهم ماشا ويهب فى وجوههم ثم ينطلق خارجا ذاهبا الى حيث قد تجمع حول المكنة عدد كبير من الناس يحيطونها ويحيطون بيل وصندوقه الخشبى معها . وماكاد يصل حتى صرخ ماشا فى الجميع قائلا : لا .. لايمكن ..

— لماذا ياماشا ؟

— مستحيل أن تصلح قطعة غيار أخرى غير القطع الروسية للمكنة .

— ولماذا لانجرب ونرى ؟

— لا .. لا يمكن .

وقلت اننا لانيأس ، وعلى هذا بينما كان ماشا يرفض ويصر على الرفض كان العمال يفكون الاسلاك من حول الخشبة ويخرجون قطعة الغيار من الصندوق ويضعونها امام ماشا قائلين : فلنجرب .

ولكن ماشا اصر على الرفض قائلا :

ان المكنة السوفيتية لاتصلح لها الا قطع غيار سوفيتية .. قال هذا وهو يشدد على كلمة سوفيتية الاولى والثانية .

وانقضى يوم ، وكاد يوم آخر ينقضى والتوتر لا يزال قائما على أشده ، والعمل معطل تماما ، والعمال جالسون القرفصاء ورءوسهم بين ركبهم يسلون بعضهم البعض ويضحكون ، وكلما خرج ماشا من حجرته أو دخل لابد يلمح هذا العدد الضخم من العمال ، والظاهر ان شيئا ما تغير فى تفكيره ، اذ

فوجىء الجميع به يخرج اليهم قائلا انه لاجل خاطرهـــم فقط ولاجل أن يثبت لهم انه على حق وانهم على خطأ سيجرب أمام اعينهم قطعة الغيار الامريكية ..

وهاص المعسكر فجأة .

وكان لابد لاختبار قطعة الغيار الجديدة من عقد (كونسلتو) هندسى من ماشا وبيل والمهندس المصرى المختص ، مؤتمر ظل ماشا فى أوله ينظر شزرا وباحتقار شـــديد الى بيل ، وبيل يقابل نظراته بعينين كأنهما فوهتا مسدسين من مسدسات رعاة البقر فى افلام السينما . ولكن الحقيقة ان تلك النظرات لم تستمر كثيرا فسرعان ما ادرك ماشا ان بيل يفهم حقيقة فى الميكانيكا وان الناس فى الولايات المتحدة ليسوا جهلة كمـــا كان يظن . واكتشف بيل هو الآخر أن ماشا الروسى ليس مجرد اسطوانة مسجل عليها اقوال ماركس ولينين ، وانما هـــو آدمى أيضا يغضب أحيانا ويثور ، وأحيانا يرضى ويبتسم ، ابتسامة صافية جدا كابتسامات الاطفال .

وكان عمل المهندس المصرى أول الامر ان يمنع الاحتكـــاك المباشر ، ويلطف الكلمات الحادة ، ويقول لبيل : طب امسحها فى دقنى انا ، ويقول لماشا : معلشى عشان خاطرى ، الى ان بلغ مراده وبدأ الجو يهدأ ، وبدأ الاثنان يتناقشان المناقشـــة الهندسية الخالصة .

وثبت من المناقشة ومن الاحتكام للمقاسات ، ومن التجربة العملية ان قطعة الغيار الامريكية تصلح لتحل محل القطعـــة الروسية .

وتهلل وجه المهندس المصرى طربا للنتيجة ، النتيجة التى كان مفروضا أن يسر لها ماشا وبيل ، ولا أحد يدرى ان كان أيهما قد تولاه السرور ، انما الذى لا شك فيه أن أحدا لم يكن ليستطيع أن يمنع الصدام الذى نشب حالا .

فما دامت قطعة الغيار قد اثبتت صلاحيتها فلا بد اذن من تركيبها وتسيير المكنة بها ، من يركبها ؟ ذلك هـــو الصدام المروع الذى نشأ .

ماشا يقول : ان المكنة روسية وأى تغيير فيها أو تبـــديل يجب أن يتم بمعرفته هو . وبيل يقول هذه المكنة كانت روسية

وهى الآن وبغير قطعة غياره الامريكية مجرد كتلة من الحديد الخردة ، ولابد له هو أن يتولى عملية التركيب والتشغيل ..

ويثور ماشا ويقول لا يمكن ان اسمح لمندوب شركة امريكية احتكاريه رأسمالية متعفنة أن يعيث فسادا فى مكنة أنتجتها ايدى الطبقة العاملة السوفييتية .

ويستشيط بيل غضبا ويقول : أيها الشيوعى الـ ..

وترتفع اكثر من مائة يد صعيدية وبحراوية ، أيد مشققة وأيد ناعمة مثقفة ، تحول بين الاثنين وتلطف الموقف .

ويعود العبوس العظيم يحتل وجه السيد عبد الحميـــــد ، فخلاف ماشا وبيل ليس نعمة ولكنه نقمة تهبط أول ما تهبط فوق رأسه .

وتطور الخلاف وتبودلت الكلمات الزاعقة الطائشة حتى عاد المعسكر الى انقســامه فلازم ماشا غرفته ، وجلس بيل جلســة المتحفز أمام بابه ، ووقف السـيد عبد الحميد ينقـل بصره بين المكنة المفتوحة البطن وبين قطعة الغيار الراقدة بجوارها ، وهو لايحس مطلقا بالشمس المنصبة فوق رأسه . وبآخر مايستطيع من جهد حاول مرة أخرى أن يجمع ماشا وبيل كى يتفقا ويركب أحدهما او كلاهما القطعة ويستأنف العمل ، ولكنـــه ما كان يجمعهما الا ليتشادا ويتفرقا ..

وكل منهما يقف موقفا صلبا عنيفا وكأنما قد استحضر فى جسده الواحد عناد امته بأسرها وكل طاقتها على القتال . أجل .. فى تلك البقعة النائية من شبه جزيرة سيناء ، وتحت لفح نيران حامية تتأجج من صفرة الارض وزرقة السماء . هناك حيث لا حياة ولا جمال ، ولا شىء سوى الرمل والصحراء والجبـل والعمل ، هناك حيث المعسكر مقام ، كان يقف ماشا وبيل وجها لوجه ، شابان متقاربان فى السن ، لهما نفس المهنة وربما نفس الهوايات ولكن كلا منهما مستعد أن يقتل الآخر مثلا لو ظل الآخر على صلفه وعناده .. كل منهما عنيد صلب يريد أن يذبح الآخر ويصفى دمه ، كل منهما يعتقد أنه على حق وأنه لو تراجع قيد أنملة فكأنما كرامة بلده وشعبه هى التى تتراجع .

والحقيقة أن السيد عبد الحميد لم يكن يقف [illegible] المكنة وقطعة الغيار وحده ، كان يقف معه محيى الدين [illegible] العمال

« النمس » وهو رغم نهمه الشديد وحبه لالتهام الطعام ، ورغم تزويغه من الشغل كلما عنت له فرصة الا انه دائما حلال المشاكل ، عمل مع ماشا فالتقط منه الصنعة وعمل مع الالمان فتعلم الميكانيكا ، ورغم هذا فيدوبك كان يفك الخط ، ولكنه كان يقرأ الصحف بمهارة ، متحمسا ، أسمر ، مبتور البنصر الايمن ، غزير العرق ، شعره أكرت قد أصبح له لون الصحراء الاصفر من كثرة ما علق به من تراب وغبار · ولكن احدا فى ذلك الوقت لم يكن يلقى بالا كثيرا الى النمس أو الى السيد عبد الحميد ، فالجميع ، حلقات ، حلقات ، مشغولون بتتبع أخبار المعركة الدائرة بين ماشا وبيل وآخر أنواع الشتائم التى كان يطلقها كل منهما خلف الآخر وأمامه ·· وعدد صفائح البيرة التى يقذفها ماشا ، وعدد جرعات بيل ·

واستمر الامر هكذا ، طيلة اليوم ، وحتى غربت الشمس ، وجزءا لا بأس به من الليل ·

وفى الصباح فوجىء الجميع بشىء لم يكن يتوقعه أحد ·· فوجئوا بالمكنة ، منذ الصباح الباكر ، تدور وقد ارتفع صوتها وتوالت تكتكاتها تشق عنان السماء ·

كان النمس ، على ضوء كلوب ، وبمساعدة زميل له ، قد قام ، من وراء بيل وماشا ومن وراء الباشمهندس ، فى الليل ، بتركيب قطعة الغيار الامريكية والتصرف فى أجزائها وصواميلها حتى طابقت تماما المكنة الروسية ·

وعلى صوتها هب الجميع من النوم غير مصدقين ، وتجمعوا بعيون نصف مغمضة يرقبون المكنة الدائرة وبجوارها النمس وعلى وجهه الطويل ترتسم ابتسامة ظفر عريضة والزيت يقطر من سواعده وجبهته ويديه ·

ومن بين الوجوه ، مئات الوجوه ، تطلع ماشا الى بيل ، وبدا من نظرتهما المتبادلة كمن سيوشكان على الانفجار ضحكا او غيظا ·

●●●

وظلت المكنة بعد هذا تدور · والى الآن وهى لا تزال دائرة ، نصفها امريكى ونصفها روسى ، والذى يديرها هو النمس بعينه ، وسمرته ، وبنصر يمناه المبتور ·

ديسمبر سنة ١٩٦٢

قصة ذي الصوت النحيل



في مثل هذا الاوان (بصوت واهن كأنه الحفيف غير مبال، باهت ، محدود) .. بدأ كل شيء وكانت المشكلة دائما أن يبدأ كل شيء ، مشكلتي ومشكلة زوجتي والاخرين . سأتحدث بالتفصيل عنهم . كنت هناك وكانت الدنيا ليلا اسود يخيف ، مليئا بالاشياء التي تخيف .. هناك كلام لابد أن أقوله لأي أحد ، لابد أن يعرف واحد على الاقل كل شيء ، المهم كل شيء .

نفس العمارة ، عمارتنا التى نسكنها الآن ، قلت لسايس الجاراج والبوابين على كل شيء ، ووعدونى هم انهم ساعة مايرونهم سيخبروننى بكل شيء ، بالتفصيل كل شيء . السكان القاطنين فوقنا كويسين وعرفنا نتفاهم بسهولة ، انما السكان اللى تحت، تحتنا ، ناس كتير ساكنين فى الشقة الواحدة ييجى خمسين نفر ، كتير قوى زى النمل لو شفت عنيهم ، عيون غويطة اذا بصيت فيها تغرقك وتبلعك ، وبقهم واسع قوى يبلع البطيخة يبلع كل شيء ، انما اصلهم عمرهم ما شافوا نفسهم ابدا ، لو شافوها مرة واحدة كان خلاص انتهى كل شيء .

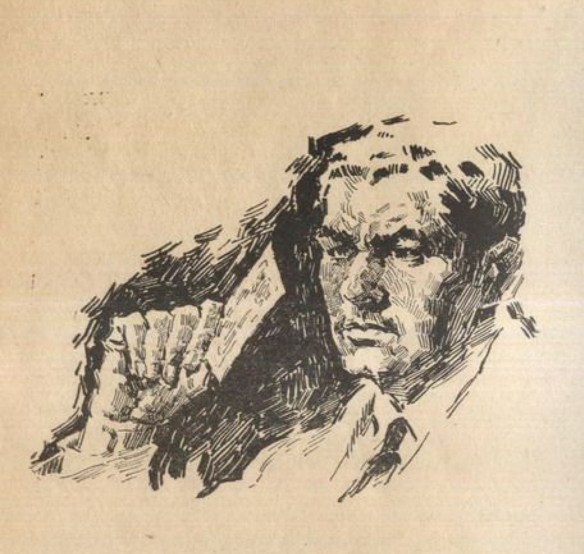
شكسبير فى روايته بيقول العين ترى كل شىء ولا ترى نفسها، انما عينى انا بتشوف كل حاجه . كانت هى اللى شافتهم . أول عينين شافوهم ، ومن ساعتها وفيه قدام عينى ضباب كتير كئيب زى ضباب الصيف فى يوم حر ، مااعرفش ليه مااتخنقوش من الضباب . بالعكس كانوا بيستخبوا منى فيه . حاولت استرضاهم بعت لهم زوجتى يعنى .. شتموها . دول ولا كان البلد بلدهم لوحدهم .. اصلنا اتاكلنا أونطة واحنا خلاص بنتنهى وكل يوم عامل زى ما يكون بيقطع مننا كل يوم حته لما ح ييجى اليوم اللى ما يفضلشى فينا حاجة . وبيسلطهم علينا وكل يوم تاميم . هم سمعوا حكاية التاميم دى وخرجوا لك من الضباب وحاصرونى . عايزين منى ايه ؟ ما تعرفش ، ما عندهم البلد واسعة وغنية قوى لو حاولنا نبيعها تتباع بكام ، بمليون مليون مليون مليون مليون ، انما دلوقت مصر دى ما تساويش عندى حاجة ابدا .. سرقوها اللصوص . أمال نسميهم ايه .. لصوص . نهب . سلب .. قشوطة ، ده فيه اسرار كتير قوى بس مش قادر اقول على كل حاجة . انا حاولت كتير معاهم بالذوق بالحيلة مافيش فايدة ، عايزين كل حاجة حتى ابنى كانوا عايزين ياخدوه لولا وديته عند عمته فى مصر الجديدة .

ضحكوا على الخدامة وبنجوها وجتلنا مبنجة انماماسابتوش بالزعيق دور وبالمحايلة دور كانت النتيجة انهم قالوا على اللى قالوه ، ولما حصلت الحكاية كنت أتوقع طبعا ان مراتى تقف جنبى ، تلاقى عيلة مراتى حد منهم مسلطهاعلى .. طبعا كان لازم تاخد موقف ، أما تبقى معاهم واما تبقى معايا .. للأسف ده يحصل منها .. جايز يكون حد من عندنا اتهمها بأنها السبب فى الحالة اللى أنا فيها دى وجه رده عليها خلاها تتنرفز وتاخذ الجانب التانى . وكل اللى بيحصل لنا ده من غلطنا احنا .. لو كنا سبقنا وضربنا قبل مانتضرب ماكنش حصل حاجات من دى ولا كانوا جابوا سيرة للملكة فريدة ، أصلها ساكنة قدامنا وعمرها ماظهرت لنا وشفناها فايه الداعى بشركوها فى الموضوع .. وانت عارف بقى .. أطلع الاقيهم مراقبين .. ادخل عينيهم ورايا .. اصل عينيهم صعبة قوى وخصوصا عينين السكان اللى تحت دول . كل عين كانها ماسورة

بندقيه والنظرة منها بتيجى منشنة تمام فى الصميم .. مش ع الحسد يعنى .. حسد ايه .. كانت تبقى أهون .. ده فيه حاجة تانيه اكتر م الحسد كتير .. حاجه زى النار لما بتولع بتقضى على كل شىء .. لما ظهرت الحكايه واتاكدت ان الملكه فريده مالهاش ذنب بره الموضوع خالص وان اللى تحت هم اللى كانوا ملفقين التهمه أخويا الكبير جه وقال لى لازم نعزل خلاص ماعدناش قادرين نقف قصادهم واننا لازم نسلم ونعزل .

قلت له مش ممكن يهزمونا .. انا لا يمكن اعزل .. انا شاب فى الاربعين انما خلونى شيخ فى التمانين .. نعزل ليه .. ونهزم نفسنا بايدينا ليه .. مش كفاية هو علينا .. هو فاكر نفسه كل حاجه .. هو فاكر ان أى حاجة عايز يعملها يقدر يعملها هو فاكر ان الناس رغيف عيش يفضل يقطعه بالسكينة حتة حتة لغاية مايخلص عليه ، هو عايز يعمل مننا بنى آدمين زى الحيوانات من غير ارادة ممكن يسوقها زى ماهو عايز ، بيسلطهم علينا .. السكان اللى تحت بيسلطهم علينا يراقبونا وياكلونا بعينيهم أكل ، عينيهم سوادها كله جوع وبياضها اسود من سوادها .. انا بارفض ولا ازال ارفض وح اقاوم النظرات والكلام وح افضل اقاوم للنهاية ، انا انسان لى كيان وعيلتى ولى ارضى حتى لو خدوها برضك بتاعتى .

انا حاولت كتير أتجنبهم وقعدت على طول فى البيت عشان ماأقابلشى حدفيهم طالع السلم واللا فى الاسانسير . أصل لما حد منهم كان يبص لى كنت بحس انى بغرق وغرقان لشوشتى فى نار سوده جوه عينين ثابتة زى عينين الميتين ، اسأل بتوع الجاراج يقولوا لك . بقوا يجيبوا سلالم حبل علشان ينطوا علينا من الشبابيك فسمرنا الشبابيك ، بقوا بيجولنا من تحت عقب الباب فبقيت احط اكياس رمل ورا الباب واحط الكنبة كمان عشان مايقدروش يزقوها ، لما لقيوا مفيش فايدة بقوا يسلطوا على التمرجى يدينى الحقنة وكانوا يدوبوا مية عينيهم فيها ويحقنى بيها فى العضل اقوم احس بعد كده بيهم ، هنا ، جوايا ، واخرتها قالوا لكل الناس انى عيان ، والناس صدقوهم تصور المصيبة الناس تصدقهم وتكدبنى انا ، كل الناس



تصدقهم ، حتى مراتى انا تصدقهم وتتفق مع الدكتور انهم يدونى حقنة بنج عشان ما اقاومش ، كانوا عايزين يدونى الحقنه عشان ما اقدرش اعمل حاجة قدام السكان اللى تحت ٠٠ خطة موضوعة ٠٠ وللاسف زوجتى اشتركت بعبط وهباله فيها ٠٠ يخدرونى انا عشان دكهم يهجموا عليا وياكلونى ٠ انا عندى كلام كتير عايز أقوله ، كلام خطير ، ده خسر كل حاجة حتى مراتى ، عايز أقوله لأى حد ، يعرف الحقيقة عشان ييجى اليوم اللى كل الدنيا تعرفها فيها لازم حد يعرف احنا قاومناهم ازاى واننا رغم كل شىء ماعزلناش وأن الملكة فريدة مالهاش ذنب فى الموضوع اللى حاولوا يعملوه بينا وبينهم واسأل البوابين وبتوع الجاراج ٠

انا زهقت خلاص من محاربتهم ، بيتهيألى انى اسلم زى اخويا وأعزل ، واللا اسلم ليه ده يبقى انتصار لهم ويفرحوا فينا ، بس انا خلاص بعدونى عنهم ومش قادر ولا عارف اقاوم ، تفتكر كل شىء انتهى ٠٠ تفتكر انتهى كل شىء ٠٠٠ صحيح كل شىء أصبح لا شىء ٠٠ تصدقها انت دى ٠٠ هو احنا عقب سيجارة نتشرب ونتفعص ونصبح لاشىء ، ازاى الناس حواليه ساكتة وكأن مافيش حاجة حصلت ٠٠ ازاى بياكلوا ويشربوا وهم مبسوطين ٠٠ هم مش عارفين ان كل شىء أصبح لا شىء ، أنا لسه عندى كلام كتير وخطير عايز أقوله بس (مستمرا بصوت واهن كأنه الحفيف ، غير مبال ، باهت ، محدود) لازم حد يعرفه ، لازم حد يعرف الحقيقة اللى ماحدش راضى يعرفها ٠



كان صلاح زوجا ، وكانت له ابتسامة ، ليست كالابتسامات الحية تولد طفلة طازجة وتتفتح فجأة على الوجه ثم تزول ، ابتسامة كانت لا تظهر ولا تختفي ولا تولد أو تموت ، ولكنها محنطة على وجهه كالمومياء • وكانت بالضبط تعبر عن حياته فهو الآخر يحيا كالمومياء المحنطة ، أو على الاقل كان هذا رأيه فى نفسه ، فهو زوج ، وهو كمعظم الازواج ساخط على الزواج يحس أن حياته المملة الرتيبة تقتله وتميت فيه الحياة بالتدريج •

ولهذا كانت أمانيه •

وهز رأسه وحسرات كثيرة تتبعثر من فمه ومن قلبه • مستحيل • كيف يحتفل بعيد زواجه من روجية • وكيف يهديها شيئا لهى التى لم تفكر فى اهدائه الا الكلمات السامة المنتقاة ، والشخطات التى لارحمة فيها ولا عاطفة •

وهكذا لم تطل حسراته ، فقد أعاد العشرة جنيهات الى الخزانة، وأغلق ادراجه ، وكان موعد الانصراف قد حان ، فاخذ طريقه الى الباب ، والشارع ، ومن ثم الى البيت وهو يحس بمغص حاد

ينتاب قلبه ، ومرارة تملأ نفسه ، وكأنه ذاهب لقضاء بقية اليوم فى السجن المؤبد الذى عليه أن يقضى بقية عمره فيه ٠

ولكنه طوال الطريق كان يفكر فى الورقة ذات العشرةجنيهات، والاهداء الذى كتبه عليها ويقول لنفسه : نعم ٠٠ لابد أن هناك حياة أخرى ٠٠ حياة مليئة بالهدايا ، والحفلات ، والبسمات ٠

ومع انه كان فاقد الامل فى حياته تلك وزوجته ،الا انه لم يمنع نفسه من تمنى شىء : أن تكون زوجته قد تذكرت المناسبة وأعدت له مفاجأة ، أو على الاقل استعدت لتحتفل بالعيد ٠

غير ان المفاجأة التى كانت تنتظره ، انه لم يفاجأ بجديد ٠ فما ان فتح الباب حتى طالعه صراخ الاولاد ، وحتى طالعته زوجته نفسها واقفة فى وسط الصالة ، وشعرها واقف ايضا ، وهى تحاول ان تضرب ابنه الاصغر ، والولد يصرخ ، وهى تصرخ ، والجدران تتهاوى وتستغيث ، والابواب تتخبط ، ورائحة القلى والطبيخ تتصاعد كالغازات السامة والمدرة لليأس والكآبة ، والاطفال يتعلقون برجليه ويتعثر فى أرجلهم ، وألف مشكلة وكارثة ومطالبة لابد تنتظره ٠

انها خانقة ، تلك الحياة ، وتلك الزوجة ٠

الا تعرف ما هو اليوم ؟

اجل ، اليوم ، اليوم يوم عشرة واللبان لم يأخذ نقوده ، وبائع الثلج والاولاد جننونى ، ؟ ولا شىء آخر ؟ لاشىء الا الهم والغم والدروس التى يجب أن تأخذها بنتك قبل الامتحان لتنجح ٠

انه يكرهها ٠ انها لم تعد امرأة يشتهيها ، ولا حتى صديقة يأنس اليها ٠ ما الذى يربطه بها وكل ما بينهما حرب مستعرة مستمرة وخلاف يتجدد فى كل ثانية ٠ كل يوم يفكر عشر مرات فى طلاقها او الانتحار ، وكل يوم لا يطلقها٠ ولا ينتحر ، وكل يوم يفكر فى حياة جديدة وزواج جديد ، وكل يوم لاينفذ حرفا واحدا من القرارات الحازمة الباترة التى اتخذها ! كل يوميفكر حتى فى خيانتها ، وكل يوم لا يخونها ٠ ماالذى يربطه بها ، حتى الاولاد ، انه يكرههم من أجلها ويكرهها اكثر من أجلهم ، ومع هذا لايتركهم جميعا و « يهج » ، ولا يتركونه ، ما الذى يبقى هذه العائلة السخيفة متماسكة ، وكل ما فيها يتنافر مع كل ما فيها ٠ الخلاف البسيط يؤدى الى نقار والنقار الى شجار ثم

يتطور الامر ويغادر المنزل غاضبا وحين يصل السلالم تخرج له الزوجة ، وتقطع الشجار وتقول :

ــ اياك تنسى تشترى البزازة ؟

ويخرج وهو مصمم على الا يعود بله أن يشترى البزازة ٠ ولكنه ما ان يلمح اجزخانة حتى يتوقف ، ثم يتصور خيبة أملها حين يعود بلا بزازة فيدخل ويشتريها ٠

لماذا يشتريها ؟ ولماذا وكل مابينهما حرب يراعى شعورها ، وتراعى احيانا شعوره ؟ ماكنه تلك العلاقة الغريبة التى تجمعهما٠

لماذا يستسلم لتلك الحياة ، لماذا لا يبدأ حياة جديدة ، لماذا لا يبدؤها فورا والآن ؟

ولكنه لم يبدأ شيئا أبدا ، فقد دخل كالعادة ، وحل بعض المشكلات وعقد بعضها وتبودلت بضع زغرات وتلميحات وشتائم ، وتغدى ، وكالعادة نام ، وحين استيقظ بعد الظهر كان قد نسى كل شىء عن ١٠ مايو وعيد زواجه ، والعشرة جنيهات وكلماته المكتوبة فوقها بخط أنيق ٠

●●●

ومرت الايام ، وهو لا يحس بمرورها ٠ فمن يوم ان تزوج لم يعد يحس بالزمن وكأنما فقد ذاكرته حتى انه لا يذكر ماهية نفسه قبل الزواج وكأنما وعى فوجد نفسه زوجا ٠

مرت الايام وهو دائب الاحساس انه يذوب ويذوب ، ويفقد ذاته ونفسه ، حتى فوجىء ذات يوم بشىء استغرب له جدا ٠

كان يفحص مبلغا واردا الى البنك ، واذا به يعثر على ورقة من ذات العشرة جنيهات مكتوب على دائرتها البيضاء : الى زوجتى العزيزة ٠٠ بمناسبة عيد زواجنا الخامس ٠

ولم يكن الخط خطه ٠

واحتجز الورقة وظل يقرؤها ويضحك من اعماقه ٠

كان أحدهم لا ريب قد ساقت اليه الصدف الورقة التى كتب عليها الاهداء فظن أن أزواجا صالحين يهدون زوجاتهم أوراقا كتلك فى أعياد زواجهم ، ففعل مثلهم ، وكانت النتيجة هذه الورقة ٠

ظل يضحك ويلعن الزوج المغفل الذى صدق النكتة.

وبعد ان انقشعت موجات ضحكه احس بشيء قليل من الندم ، فقد أدرك انه بطريقة أو بأخرى قد خدع ذلك الزوج ، وانه قطعا مسئول الى حد ما عن تلك الخديعه .

•••

غير انه بمرور الايام تضاعف ضحكه وتضاعف تأنيبه لنفسه ، فقد تبين انه لم يضحك على زوج واحد فقط ، ولكنه خدع كثيرين ، فقد وجد اهداءات كثيرة مكتوبه على أوراق بنكنوت من ذوات العشرة والخمسه والخمسين ، واحيانا المائه — ولم تعد يستطيع كتمان الامر عن زملائه ، فاطلعهم على الاوراق ، وحكى لهم القصة وهو لا يتمالك نفسه . وطبعا ضحك الزملاء كثيرا . وتبادلوا الضربات على الاكتاف ، وقال أحدهم ان اعظم زوجه فى العالم لاتساوى قرش صاغ واحد فما بالك بعشرة او بخمسه أو بخمسين جنيها .

وأصبحت المسألة مصدرا لا ينضب للضحك ، فما يكاد يرد الى صلاح ورقة عليها اهداء حتى يشير بالورقة الى زملائه من بعيد وكأنما يقول : وآدى مغفل جديد .

ولكن عدد المغفلين كثر بشكل أفقد المسألة ما كانت تثيره من ضحكات ، بل كثر بشكل أزعج صلاح نفسه ، لقد قرأ يوما اهداء وكان موجها من زوجة الى زوجها .

وأصبح تأنيب الضمير على الخدعة التى ابتكرها لا يكفى ، أصبح لابد من التفكير ، ما هى حكاية هؤلاء الناس ؟ وهل هى مجرد محاكاة لما فعله ، أم لابد أن فى المسألة سرا خطيرا لا يدريه ؟

وكان عليه لكى يكشف السر ، ان كان هناك سر ، أن يجرب .. وبهرته الفكرة ، وأحس لها بحماس شديد ..

•••

كان يوم ١٠ مايو قد اقترب ، وعام جديد قد اضيف الى عمر زواجه ، فلماذا لا يفعلها ويجرب ؟

أجل ، فليجربها فى عشرة جنيهات . ولكن تفكيره ما ان حوم حول الرقم حتى هبط حماسه فى التو . عشرة جنيهات !؟ انها تكاد تبلغ ثلث مرتبه أو نصفه . اذا كان لابد من التجربة

فليجربها فى جنيه مثلا . ولكن ، أيصح أن يهدى زوجته جنيها واحدا فى عيد زواجها . المسألة حتى من الناحية الشكلية محرجة ، ولكنه اذا نظر اليها من الناحية الاخرى فانه لا يمكنه ان يهديها عشرة جنيهات مرة واحدة ، فهو لا يهدى زوجته ، انه يهدى غريمه . فلتكن خمسة اذن . تكفى خمسة .. انها كافية جدا .

وهكذا جاء يوم ١٠ مايو ، وجاءت الساعة الثامنة منه ، وصلاح عائد الى البيت وفى جيبه الورقة والاهداء على دائرتها البيضاء حبره لم يجف بعد ، وكل مايحسه هو الفرحة لانه مقبل ، فى حياة قاتلة الملل ، على تجربة جديدة ، وحب استطلاعه يكاد يطل من عينيه اذ ترى ماذا ستفعل روحية ؟ وهل يغمى عليها .

•••

وكالعادة فتح الباب ، وواجهه سوق روض الفرج المعتاد ، وبعد ان تم الغذاء والحساب والعتاب ، ناداها على حدة فى غرفة النوم ، ومع هذا اصر ابنه المتوسط على عدم مغادرة الحجرة وأمسك بروب امه واستماتت عليه . وظل صلاح يتعثر نصف ساعة فى كلمات لا معنى لها ، ثم أخرج الورقة ذات الخمسة جنيهات ، ووضع الدائرة البيضاء امام عينيها لترى الاهداء .

وبدت الصدمة واضحة على ملامحها ، وظلت واقفة فى مكانها لا تتحرك ، كان لسانها أول ماتحرك فيها ، وأول مافعله اللسان أن فتح له محضرا طويلا عريضا . وراحت تسأله وتضيق عليه الخناق لتعرف من أين جاء بالخمسة جنيهات وميزانيته كلها تعرفها بالمليم والصلدى وقال لها انه استلفها لتخصم على شهرين من مرتبه . ومعنى هذا أن ينقص ايرادهم فى الشهرين القادمين . وهكذا شبت النار ، وبعد لحظات قصار أصبح الحديث اتهامات متبادلة ، وشتائم وتهديدات ، وايمانات مغلظة ، خرج على أثرها صلاح من الحجرة غاضبا لاعنا تاركا الجنيهات الخمسة تنعى من أهداها .

وجلس فى الصالة يغلى وينفخ .. لا فائدة على الاطلاق . انها

حرب لا هوادة فيها . انه عسكرى فى جيش وليس زوجا فى بيت انه لا عمل له الا الدفاع عن نفسه ، والحرب ادابته وهدته وأتت عليه ، حتى العسكرى يحظى بهدنة وراحة أما هــو فمعركته لا تتوقف .

وبينما هو يغلى وينفخ ، كان عقله يعمل ويحلم ، أجل ، لابد ان هناك حياة غير تلك ، حياة رحبة ، لاقتال فيها ولا خناق ولا ملل ، حيــاة مليئة بالبريق وبالرائع الجديد ولا ينقصها سوى الجرىء الذى ينهى حياته وجبنه وينطلق اليها .

وبوغت حقـا حين رأى روحية قد خرجت من حجرة النوم ووقفت قبالته على بابها لا تتحرك والورقة فى يدها . ورمقها وهو يلعنها . لابد أنها الآن اطمأنت أن الجنيهات الخمســة لم تضع وأنها على أية حال باقية فى البيت . ولكيلا يلعنها ، فقد أصبح يضايقه حتى ان يلعنها ، حول وجهه عنها .

غير أنها سألته وهى واقفة من بعيد ان كان جادا حقا فى كلامه واهدائه . وطبعا زفر ولم يجب . ولكنها ظلت تلاحقه بالسؤال ، ولانه يعرف أنها ان صممت على شىء فلابد أن تعرفه ولو فرقعت مرارته وحطمت رأسه ، فلكى يتخلص منها قال لها:

ايوه يا ستى هدية بحق وحقيق ... بمناسبة عيد الزفت الزواج .

وفوجىء حين وجدها تنخرط فجأة !! . لا ليس فجاة .. فقد حدثت فى وجهها تغييرات متوالية مضحكة وانقباضات وانبســاطات وتجعيــدات ، ثم انخرطت فى بكاء ضاحك . تضحك وتبكى وتضحك ، وشعرها منكوش ، وروبها مفتوح ، والولد لا يغادر مكانه بين ساقيها .

وأخيرا قالت أنها قد اعدت له هدية هى الاخرى . ايه ياستى . وناولته الورقة . وتحت اهدائه وجدها قد كتبت : الى زوجى العزيز الغالى المحب بمناسبة قراننا .. من المخلصــة جــدا زوجتك .

وفرت الدمــوع فى الحال من عينيه . لا لان ما كتبتــه كان غريبا ولكن لانه صدر منها وبخطها . ما أروع كلماتها . الى زوجى العزيز الغالى ، حتى أخطاءها الاملائية ، حتى امضاءها ، حتى طريقتها الساذجة فى التعبير عن نفسها ، ولو كانت أجمل

امرأة فى العالم هى التى كتبت له هذا لما بدا أروع من كلمات روحية ، روحية ذات الخرابيش والصوت الحاد اللافح ، انه شىء لا يحتمل ، أبدا لا يحتمل .

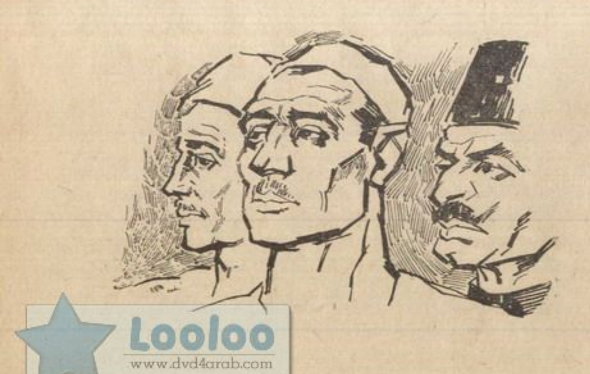
وأخذها على كتفه وقبلها . واحمر وجهها جدا وهى تقبله . ربما كانت هذه أولى قبلاتها له . وربت على كتفها ، وربتت على ظهره ، وبكيا ، وتعانقا وكما يضىء البرق فجــاة تزاحمت الخواطر فى عقله . ان حياته معهــا كره فى كره وخــلاف فى خلاف ومواقع اثر مواقع هذا صحيح .. ليلة أن صفعها مثلا وخربشته بأظافرها وتدشدش طقم الشاى ، ليلة أن اختلفا حول اسم تامر ، ليلة أن اصطدمت بالمرحومة امه ، ألف ليلة وليلة من الالم القاسى الممض »

العجيب انه لا يحس شيئا من هذا الالم الان ، وكأن الالم فى حينه يصبح ذكرى بعد حينه فكل ما يحســه الان أنه كان شابا وانها كانت صغيرة وانهما كانا طائشــين ، وما أعــذب الطيش حين تمضى أيامه ويصبح مجرد لحظات تســتعاد . أن الخلاف ينفر ولكن العجيب أن خلافاتهما كانت تقربهما اكثر . والخلاف يقولون انه يخرب البيوت والخلاف عمر بيته فقد كان لهما حجرة واحدة والان عندهمــا ثلاث ، ولم يكن هناك أولاد والان لهما أربعة وحين تزوجها لم يكن معه الا التوجيهية والان معه بكالوريوس ، وهى تزوجته وهى مدللة لا تعرف سوى قلى البيض وتخطيط الحواجب والآن بشهادته أمهر خياطة وطباخة ، وكانت بالكاد لا تقرأ الا « حواء » لتعرف الموضـــة وهى الان تناقشه فى السياسة وتبزه تلك التى يعتبر نفسه ضليعا فيها .

ألف خــاطر عن له ، لو كان قد تزوج مطيعة لا ترفض له رغبة او طلبا لما تحرك من مكانه وموضعــه ولما تحركت هى الاخرى . انه مغفل . أيكون ما يعيش فيه هو سعادة الواقع وهو لا يدرى . انه كان يفكر دائما كأحد طرفى الخلاف ولكنه ابدا لم يفكر كزوج لابد له زوجه ولا تتم ســعادتهما الا معا ، ولا يسعد الشخصان معا الا اذا اقتربا ، ولانهمــا انســانان وشخصيتان فانهما اذا اقتربا احتكا واختلفا ونتج عن احتكاكهما موجات من الرضا والغضب والسخط والألفة والحب والكره .

أتكون هذه الموجات هى بنفسها السعادة التى طال ســمعه عنها .

فوق حدود العقل



أتكون كالشرر لا يحدث الا اذا طرق الحديد بالحديد والحجر بالحجر ·

تلك المرأة التى يضمها بين يديه الآن ، رفيقة العمر ، التى صاحبته لحظة بلحظة وساعة بساعة ، لابد انها كانت تقاسى مثله ، وكانت تكرهه مثلما يكرهها ، وتحملته مثلما تحملها ، وكل ذلك قد مضى ، ويمضى ، ويصبح ذكريات أهم ما فيها انها مرت وطعمها الآن من طعم العمر المولى ألذ وأطيب وأمتع طعم · انها الان بين يديه ضعيفة ، مستسلمة قد اسعدتها عديته البسيطة الى درجة البكاء والنشوة ·

الف خاطر وخاطر ، وعاطفة قوية مبهمة تتفجر فى نفسه ، واعزاز غريب مفاجىء لروحية يكتشف انه يملأ صدره · أيكون كل ما كان بينهما من خلاف وتعنت وكره هو الحب ، الحب الاكبر · أكان من حمقه يحلم بالحياة السعيدة الاخرى والحياة الاخرى هو فيها ، ويفكر فى الهجرة الى دنيا جديدة وهو يغمض عينيه عن دنيا الحقيقة الجديدة ويقول ان انهاء حياته الخاملة تلك فى حاجة الى شجاعة ، والشجاعة هى أن يتقبل حياته هذه ويؤمن أن روحية زوجته والاولاد والبيت بيته وهو دعامته والمسئول عنه ·

الف خاطر وخاطر ، وهما واقفان ، بين دهشة الاولاد ، متعانقان وكأنهما كانا غائبين لعشر سنوات مضت ، وكل هذا بغلطه ، بلفته ، بنكتة ، بكلمات قليلة على ورقة ·

●●●

ولم تكف أوراق البنكنوت ذات الاهداءات عن الورود لصلاح ، مكتوبة على أوراق من فئة العشرة والخمسة والجنيه والخمسين قرشا فى بعض الاحيان · وكلما قرأ صلاح الاهداء ، وتأمل اللحظة التى لابد سبقته واللحظة التى أعقبته ، كانت سعادة غامرة تملأ جوانحه ، وكأنه قد اخترع اختراعا للسعادة البشرية أو اكتشف اكتشافا ، ولفرط سعادته باكتشافه حاول ذات يوم أن يبدأ فى عد الاوراق ذات الاهداءات ليعرف كم من السعادات تسبب فيها وأحدثها ·

ولا يزال صلاح الى الان يعد ، ويبدو انه لن يتوصل أبدا الى معرفة الرقم الصحيح ، فالاوراق لم تكف أبدا عن الورود ·

دونت الاسم والسن والسكن مرتين وفى صفحتين متقابلتين كما تقضى التعليمات ، ولم يكن قد بقى سوى سؤال واحد أو سؤالين عن سلوك الشاب ، وأوقع ، وينتهى الامر ٠ ولكن الامر فى ذلك اليوم لم ينته أبدا ٠٠ الى الآن ، وأنا لا أعرف ماذا حدث بالضبط وجعلنى أشك ٠٠ كانت وقفة الشاب عادية ٠٠ نفس الوقفة التى وقفها قبله كثيرون ، والتى أعرف أن كثيرين غيره سيقفونها ٠٠ نفس الوجه المنكس ، وكأنما ينظر الى منتصف الكرة الارضية ٠٠ نفس النظرة الذاهلة الباحثة عن لا شىء ٠٠

سألت ٠٠ بصوت ضجر ، وأذن متعبة ، وعقل كان عليه أيضا أن يتلقى الكلمات الكثيرة وينقيها من الضجة ، ويترجمها الى اصطلاحات يمليها على قلمى المشرع ليسد بها الخانات وينتهى كل شىء ٠٠

سألت : ما الذى فعله ؟ وجاءتنى الاجابة ٠٠ قام فى الليل وأمسك بالسكين وحاول ذبح زوجته التى لم يدخل بها الا من أسابيع ، وحين حاولوا منعه كاد يفتك بهم ، تغلبوا عليه وأخذوا السكين منه ٠٠ اتجه الى النافذة يريد أن يلقى بنفسه منها ، فاضطروا حينئذ لتكتيفه وضربه والاستغاثة بشرطة النجدة ٠

وتوقف القلم وعدت أسأل : متى ؟ ٠٠ منذ بضع ليال ، وبدأ القلم يضيق بوقفته التى طالت دون أن يسد خانة ٠٠ وقلت أخيرا : ليس هذا بكاف ٠٠ هل تكررت أعماله هذه ؟ هل فعل شيئا آخر ؟٠٠ وجاءتنى الاجابة :

ـ يوهوه ٠٠٠ كتير ٠٠ يقوم فى الليل ويظل يصرخ ويوقظ الجيران ويتصور أشـــياء لا وجـود لها ٠٠ يعتقد أن اخوته يتآمرون عليه ويريدون انتزاع أرضه التى ورثها عن أبيه ، وكثيرا ما يكلم الهواء على أنه الاب الذى مات من عام ويشكو له هذا الاخ أو ذاك ٠٠

بارانويد شيزوفرينا ٠٠ جنون الاضطهاد ٠٠ هكذا خمنت ، وكتبت ، وأحكمت الحيثيات ٠٠ وآخر ما كان قد تبقى ليصدر حكمى بتحويل الشاب الى مستشفى الامراض العقلية ، ونقله من خانة العقلاء الى خانة المجانين ٠٠ سؤال ، مجرد سـؤال واحد ألقيه على (المتهم) بمرضه ، للتثبت من التشـخيص لا أكثر ، ولكى يطمئن ضمير القاضى الذى فى :

ـ صحيح كنت عايز تقتل مراتك ؟

ولم تأتنى اجابة ما ، وسألت مرة أخرى ، وجاءت نهنهة ٠٠ اجابة ليست غير متوقعة ، فما أكثر ما تأتى اجابة المجانين على هيئة بكاء ٠

ورفعت عينى ، وكأنما ايذانا بانتهاء الجلسة ٠٠ كان الوضع لم يتغير ٠٠ حجرة مفتش الصـحة فى المكتب البالى الحافل بالازدحام والضجيج ، الباب نصف مفتوح يطل منـه وجه التومرجى تزاحمه عشرات الوجوه ، والكنبة البلدى بملاءتها الدمور ، ولوحة كشف النظر التى حال لونها واصفر وأصبح بنيا بارزة من ركن الحجرة ٠٠ كعلم مرفوع بالتسليم والاذعان لوطأة الزمن ٠٠

وفى الوسـط تماما ٠٠ كان الشـاب نحيلا فى « قميص الكتاف » القذر الواسع ، مقيد اليدين بأكمام القميص الطويلة من الخلف ، وبجواره العسكرى المعهود ، فلابد مع كل مجنون يرسله القسم من عسكرى ، ولكنه هذه المرة طويل ، مـهيب الطلعة أنيق البزة ، يصلح ليكون على رأس قره قول شرف ٠٠ أو ليتقدم موكب المحمل ٠٠

تأملت المشهد برهة ، ثم قلت : خذوه ٠٠

قلتها وأنا حزين ، نفس الحزن الذى يراودنى لثانية فى كل مرة تخرج من فمى الكلمة ، حزنى على دنيانا التى فقدت عقلا ، وما أشد حاجتنا الى كل عقل ٠

تكاسل الشاب قليلا ، ودفعه العسكرى بغلظة غير عادية ، واستعد التومرجى وفتح الباب ، وتراجعت الوجوه ، وكادت الحجرة تخلو ٠٠ لولا انى تذكرت الخانة التى كنت أنسى ملئها دائما ، الخانة التى يقيد فيها اسـم قريب المريض الذى أدلى بالمعلومات عنه ، وعنوانه ٠

وقلت : استنى ٠٠ فين قرايبه ؟

وجأر صوت عيد التومرجى ، كالمبلغ فى صلاة الجمعة الذى يعيد كل ما يقوله الامام :

ـ استنى ٠٠ فين قرايب المريض ؟

وسأل العسكرى :

ـ حضرتك عايز قرايبه مين ؟

قلت : قرايبه اللى كانوا بيقولولى على مرضه دلوقت ٠٠

ـ أنا اللى بقول لحضرتك ٠٠

ـ انت قريبه ؟

ـ أنا أخوه ٠٠

ـ أخوه ؟! ٠٠

مرة ثانية رحت أنظر الى العسكرى ، وأخيه المريض ، ولا أكاد أصدق ٠٠

ـ انت أخوه صحيح ؟

ـ أنا حاكدب يادكتور ٠٠ الكرنيه أهه شوفه سيادتك ٠٠

فى الواقع لم أعد السـؤال للتأكد ، أعدته فقط لأسكت احساسا حقيقيا بالشفقة ، لا على المريض وانما على أخيه ٠٠ ان الجنون هو المرض الوحيد الذى يمرض فيه الشخص ويحس بآلام مرضه الآخرون ٠٠ ان المجنون لا يتعذب ، العذاب يحل بأهله وأقربائه وذويه ٠٠ فهذا العسكرى ، تراه كم تألم وهو يستصحب أخاه الى القسم مجنونا ، ثم وهو يمضى أوراقه من الرؤساء ، ثم وهو يقف أمامى يحكى بلسانه مافعله ويدلل على جنونه ، ويعريه ، خاصة وهو لم يكن عسـكريا عاديا ، اذ

اكتشفت أن على ذراعه أشرطة أربعة كان واضحا أنه مهتم بها ، وبمركزه ٠٠ وقد صنعها من حرير أحمر أنيق ٠٠

ولكن انسانيتى لم تستغرق ســوى لحظة ، عدت بعدها أطمئن على الروتين ٠٠ فالمفروض الايرسل المريض معاقربائه ، لابد من عسكرى يوفد لحراسته ، حتى لو كان قريبه ضابطا أو شاويشا ٠٠ الروتين هو الروتين ٠

وسألت : أين العسكرى ؟

ومن بين الوجوه الكثيرة المتزاحمة على الباب ، برز وجــه ما لبث أن أصبح له جسد رسمى أسود ، وبندقية ، أعقبتها خبطة قدم ، وتحية ، ولم يكتمل الروتين الا بتأنيبــه ، والا باعتذاره أنه لم يكسر القاعدة وينتظر بالخارج الا بناء على رجاء من الاخ الباشاويش ٠

ـ خلاص يا دكتور نمشى ؟

قالها الاخ مترددا ، محرجا ، وكأنما يستعجل مغادرة الحجرة وانهاء الموقف ٠٠ ولكنى لم أكن معه ، كنت أحدق فى الاخ المريض الذى بدأت ألحظ عليه أشياء ٠٠ كان فى وجهه ورقبته كدمات وآثار ضرب ، ورقبته بالذات كانت بها عضة واضحة اشتركت فى صنعها قواطع وأنيــاب ، ولم يكن قد كف عن البكاء ٠٠

ووجدت نفسى أسأله عما يبكيه ، وأنتظر اجابة من الاجابات المريضة المعتادة ٠٠ ولكنــه ازداد بكاء ولم يجب ٠٠ وأعدت السؤال ، وأيضا لم يجب ، رفع رأسه وبجانب وجهه ألقىعلى أخيه الشاويش نظرة ، انفرطت على أثرها دموع كثيرة منعينيه بلا كلام ٠٠ ووجدت نفسى أنظر أنا الآخر الى الشاويش ٠٠ ودهشت قليلا حين وجدته يصوب أشعة محمية من عينيــن واسعتين مبحلقتين ، وكأنما يأمر بها أخاه أن يكف عن البكاء ، ويكف عن النظر اليه ٠

ومرة أخرى وجدت نفسى أسأله عما يبكيه ، وهــذه المرة أيضا لم يجب ٠٠ غير أنه بلمحة جانبية خاطفة ألقاها على أخيه سكت ، وعاد ينكس رأسه الى الارض ٠

وأحسست ، رغم الصمت المستتب ، أن الجو مشحون ٠٠ وأننى أنا الآخر بدأت أنتبه ، وأتفرس ، وأحاول أنأستخلص من الصمت سره ٠

وفجأة التفت المريض كلية الى أخيه الشاويش وقال :

ـ خد الارض ياأخى فى ستين داهيه ٠٠ هات عقد البيع دلوقت وأنا أمضى لك عليه ، انما بلاش تبهدلنى كده يابدرى وأنا أخوك !!

وكف عن البكاء ، وخفت أن يكون ما قاله مقــدمة لنوبة ، وما أبشع نوبات مرضى الاضطهاد ٠٠ انهــا النوبات التى يقتلون فيها ويعتدون ويصــبحون كالوحوش الهائجة التى لا يوقفها خوف أو تهديد ، خير ماتفعله حينئذ أن تقتنع بكلامه ٠٠ وتجاريه ، وقلت :

ـ هوه عايز ياخد أرضك ؟

وبانفعال حقيقى ، كانفعال البشر العاديين ، وجدت كل ذرة من جسده تنتفض داخل قميص الكتاف ، وصدره يكاد يمزق القماش صاعدا هابطا لاهثا وهو يقول :

ـ ده يابيه أخويا ابن أمى وأبويا ، وأبويا مات وساب لنـا تسع قراريط ، واحنا تلات أخوات ٠٠ بدرى دهه اللى بيشتغل شاويش وبيــاخد له ييجى عشرين جنيه من الحــكومة ، وواحد تانى ، وأنا الصغير ٠٠ كل واحد منا نابه تلات قراريط !! ليه وليه الا بدرى أخويا عايز ياخدهم منى عشان يبقى حداه ربع فدان ، بقى له ست أشهر وهو كل يوم يهددنى ويضربنى وآخرتها عايز يودينى السراية ٠٠ عشان يستولى عليهم ٠٠ كده يابدرى ٠٠ روح ياشيخ الله يسامحك ٠٠

كان بدرى قد هم أكثر من مرة أن يقاطع أخاه ، ولــكنى باشارات قاسية كنت أزجره وأرغمه على السكوت ، وما كاد أخوه ينتهى حتى انطلق كالبركان المتفجر يقول :

ـ بلاش فضايح يا محمد ٠٠ كفايه بقى الحته كل يومتتفرج علينا ٠٠ جاى هنا كمان عايز تفرج علينا الدكتور ٠٠

ثم التفت الى كمن لا حيلة له قائلا :

ـ أهو زى ماانت شايف كده يابيه ٠٠ كلساعة على دهالحال ٠٠ لما أنا نفسى قربت أتجنن ٠٠



وسألته :

– انما صحيح أبوكم فات لكم تسع قراريط ؟

– وحياة سعادتك ولا سهم ٠٠ حتى اســــال مراته ٠٠ يا فرحانه ٠٠ يا فرحانه ٠٠ تعالى هنا ٠٠

ودخلت فرحانه ٠٠ كالعروسة الحلاوة الملفوفة فى ملاءة من ورق سولوفان ، لا يخفى بقدر ما يظهر ويجمل ويجعل الريق يسيل ٠

– انت مراته ؟

– قسمتى يا بيه !

– هوه صحيح بيعمل الحاجات اللى قال عليها أخوه ؟

قلت هذا وأنا أتفرس فيها ، وأعجب بينى وبين نفسى لزوجة يجن زوجها ويمرض ، وتذهب معه الى مكتب الصـحة بهذه الحواجب المرسومة والروج الموضوع بصبر وأناقة والبال الخالى ٠٠ الخالى حتى من نظرة تلقيها على الزوج المريض ٠٠

– يابيه ٠٠ أنا فى عرضك ٠٠ دى مش مراتى ٠٠ دى مراته هوه ٠٠

هنا فقط التفتت اليه ودبت على صدرها بيد مثقلة بالغوايش والخواتم قائلة :

– هى حصلت يامحمد ٠٠ بقى مانتاش عارفنى كمان ٠٠ اخص عليك ٠

– والله ماهى مراتى يا ناس ٠٠ مراتى حابسينها فى البيت وجايبين دى تعمل مراتى ٠٠ يا بدرى أنا فعرضك ان كنت عايز الارض خدها ٠٠ هات العقد وأنا أمضى لك عليه ٠٠

ولدهشتى ٠٠ وجدت بدرى يأخذ كلامه جدا ، ويلتفت اليه قائلا بعينين ناريتين :

– أرض ايه يابنى اللى اخدها ٠٠ ماربك غانيها من غير أرض ٠٠ أنا بتاع كلام من ده ٠٠

وربما كلامه هو الذى شجع الزوجة ودفعها لان تقول :

– أرض ايه يامحمد اسم الله عليك ٠٠ عقلك يا خويا أحسن من ستين أرض ٠٠ مش عيب تقول على أخوك كده ٠٠ ربنا يشفيك ٠٠

– يابيه ده موتنى م الضرب ليـــلة امبـــارح ٠٠ أنا راجل كلوباتى على قد حالى وهوه شاويش فى البوليس ومخوف الحته ٠٠ وعايز ياخد التلات قراريط بالقوة ٠٠ ياخدهم ياخدهم ٠٠ بس بلاش تودينى السراية وأنا مضروب يا عالم وجسمى مكسر ٠٠ اتفضل شوف ٠٠

– والله يابيه أنا ماضربته ولامديت ايدى عليه ٠ ده حصل واحنا بنحوشه وهو رافع السكينة على مراته دى ٠٠ ده طول الليل قاعد يهربد فى نفســه ومطلع عنينا معاه ٠٠ كده واللا لا يافرحانة ؟

وهزت فرحانة رأسها وبكت وأخرجت من صدرها منـديلا صغيرا أبيض جففت به الدموع ٠

وبدأت الحجرة تمتلىء بالضباب ٠٠ أتفرس فى وجه الشاويش فأجده ضخم الجسد ، ناصع البدلة مدبب الملامح ، صـاعق النظرات ، أشرطته الاربعة نافرة على كتفه تكاد تضىء بنـور أحمر وهاج . وبجواره أخوه الصـغير ، منفوفا كرطل العظم المشفى فى خرق بالية وقميص كتاف ، وبينهما فرحانة تبكى بحرقة وتندب حظا لا يعرف صاحبه . والعيون كلها زائغـة لا فرق بين عيون بدرى العاقل أو محمد المجنون والاعصـاب مشدودة والحقيقة قد بدأت تضيع ، حتى من العسكرى الواقف يحرس هذا كله ويحمى القانون ومنى أنا صاحب أسوأ موقف الوحيد من بين الحاضرين جميعا ، الذى كان عليه أن يقرر ، فى دقيقة أو جزء منها ، أين يكمن الحق ، ويحكم بين أخوين لم يرهما الا منذ دقائق ، وكل منهما يكذب الآخر ولابد أن أحدهما على الاقل كاذب والآخر اما مجرم أو مجنون ٠٠ وبدأ شىء يبرز وسط الضباب ٠٠ ولم يكن شيئا ٠٠ كان رجـلا ارتفع صوته بالخارج ، قائلا للتومرجى : أوع ٠٠ ثم مالبث أن اقتحم الحجرة وانتصب قريبا من الاخوين على هيئة عســكرى آخر ضخم أيضا وطويل . وعلى صدره كوردونات خضراء كتلك التى يرتديها حرس مجلس الامة أو الوزراء لاأعرف ، وكان شاحب الوجه يلهث ، وقبل أن يلتقط أنفاســه بدأ يتكلم ، موجها كلامه للأخ الشاويش الاكبر قائلا :

– بقى كده يابدرى عايز تعملها وتودى محمد السراية ٠٠

الله يلعن أبو الارض ٠ ٠دول تلات قراريط يابدرى تعمل فى أخوك كده عشانهم ٠

وقبل أن أساله عمن يكون ٠٠ تطوع هو بتقديم نفسه قائلا انه الاخ الثالث الاوسط ، وأنه علم منذ قليل أن بدرى قد استصحب محمدا بالقوة ليدخله السراية ، فجاء يجرى ليمنع الجريمة ٠

وبكى ، وضايقنى بكاؤه ، وصرخت فيه ماذا يبكيه وهو الراجل الوافر القوة والقدرة ، واذا به يقول :

ـ مايغركش يابيه ٠٠ أصل أنا أعصابى تعبانه شوية ، واتعالجت عند الدكتور ناشد فهمى المدرس بتاع الامراض النفسانية فى الدمرداش ٠

قلت فى سرى : المسالة اذن وراثية ٠٠ وخيط الجنون يسرى فى العائلة ، وسالت :

ـ اتعالجت من ايه ؟

ـ أصلى حصل لى انهيار فى أعصابى ٠٠ أصلى قتلت مرة حرامى ، ومن يومها وأنا بدوخ وكل أما أشوف بندقية نفسى تغم عليه ٠٠

ولابد أن روح الهزل هى التى تستبد بنا أحيانا ٠٠ فقد وجدت نفسى أنسى الموقف تماما ، ولا يعود يهمنى سوى حالة هذا الاخ الاوسط الذى بدأ يرتجف أمامى ويهتز ، وأكاد أضحك كلما قارنت بين جسده الضخم المهيب وصدره العريض الحافل بالكوردونات وبين ساقيه المرتعشتين والدموع السائلة من عينيه ، ولم أكن قد رأيت قاتلا يعترف أنه قاتل من قبل ، بل لم أكن أتصور أن يحدث للعسكرى اذا قتل لصا كل هذا « الانهيار الاعصابى » ٠

وسالته ، وأجاب :

ـ أصلى كنت عسكرى داورية وبعدين شفت حرامى بيكسر دكانة ، لما شافنى جرى ، ضربت طلقة فى رجليه أهوشه ماوقفش ، فضربت فى المليان قام جت الطلقة فى ضهره ومات ٠٠ وفضلت واقف جنبه لما النهار طلع وخدونى ع القسم ٠٠ وبعدين بقيت أعلوس فى الليل ، ومابارضاش أطلع دوريات

قعدوا يجازونى وبعدين لما لقيوا مافيش فايده حولونى ع المستشفى وخدت ١٢ جلسة كهربا فى مخى على سنه ونصف ٠

وبدأ يمد يده فى جيبه ليخرج الروشتات وأوراق العلاج ولكنى لم أكن فى حاجة لادلة أو اثبات ودهشتى الاولى كانت قد خفت قليلا ، وبدأت أعود الى القضية المعلقة أمامى فى انتظار الحكم ٠ وطلبت من القادم الجديد رأيه فيها ، وبدأ الاخ الاكبر بدرى يحتج ويقول :

ـ يا دكتور ماتسمعش كلامه ٠٠ ده مهفوف ومضايق منى عشان أنا أغنى منه ومابرضاش أديه فلوس عايز يلبسنى تهمة يا دكتور ، هو ده معقول أدعى على أخويا انه مجنون ٠٠

ـ ده انت تعملها ٠٠ وتعمل أبوها ، دانت مجرم ٠٠ أقسم بالله انك مجرم ٠٠ يابيه ٠٠

والتفت الاوسط الى شارحا كيف مات أبوهم وترك لهم القراريط التسعة وكيف أن أخاهم الاكبر هذا بخيل أنانى جشع يستولى على ايجار الارض ويريد أن ينتزع ملكيتها وكيف أنه يضع المليم فوق المليم ويحرم نفسه ويقتات بالملح والفلفل حتى يجمع ثمن فدان ، وكم من مرة حلف بشاربه وبتربة أبيه أنه لن يرجع حتى يصبح مالكا لزمام فدان ، وكيف أنه استغل ضعفه وضعف أخيه الاصغر محمد ليفرض عليهما جبروته وسلطانه ٠

واحنا التلاته عايشين فى بيت واحد ، كل واحد واخد أوضه هو ومراته وولاده ، ومحمد لسه مجوز جديد ، وبدرى ده محتل الصالة بالعافية ، ويبقى الفطار عنده ويسيبه وييجى يقعد بالقوة يفطر مع واحد فينا عشان يوفر ، ومايهون عليه يشترى باكو شاى واللا بقرش سكر ولما يشم ان واحد فينا عمل شاى ييجى يستولى ع البراد بالرزالة ٠٠ وآخرتها عايز يودى محمد فى داهية عشان يتعين وصى عليه ويلهف التلات قراريط ٠٠

ومرة أخرى بكى ، ونظر الى أخيه محمد وهو يبكى ، فبكى محمد هو الآخر ، وتصاعدت من حناجرهما أصوات متحشرجة مختلطة بالدموع تعاتب بدرى وتدعو عليه وتطلب من الله أن

يظهر الحق ويجازى كل ظالم على ما يرتكبه ٠٠ أما بدرى فقد
وقف زائغ النظرات يصرخ فيهما ، وينهر أخاه الاوسط ويعجب
كيف يوجه له اتهاما بهذا ٠٠ القصد منه لا شك ان يحاكم
ويفصل من وظيفته وهو يعلم تمام العلم ان اخاه مجنون وأنه
على حق ٠٠ اما فرحاته فكانت قد انسحبت من الحجرة تاركة
المشهد يحتله الاخوة الثلاثة ووراءهم يقف العسكرى الرسمى
صامتا ، بليد الملامح وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يفقه مما يدور
أمامه حرفا ٠

وهكذا وجدت يدى تمتد ، وتقطع الاستمارة ووجدت نفسى
أعود مرة أخرى لفحص قوى محمد العقلية ، بنظرة محايدة
جديدة ، ولدهشتى وجدت اجاباته كلها معقولة ، ولدهشتى
الاشد لم أجد اجاباته تختلف كثيرا عن الاجابات التى بنيت
عليها احتمال جنونه ، نفس الجمل تقريبا ، بنفس الالفاظ ،
كل الفرق أننى أسمعها بأذن محايدة ٠٠ اذ الظاهر أنه يكفى
أن تفترض الجنون فى انسان حتى تجد فى كل مايقوله أو
يهمس به أدلة تثبت جنونه ، ويكفى أن تفترض العقل فى
انسان ، حتى لو كان غير متمالك لقواه العقلية حتى تجد فى
كلماته واجاباته ما يدعم ايمانك بأنه عاقل ٠

واتضح أن حكاية القراريط الثلاثة صحيحة ، والتهديد
صحيح ، والضرب والتعذيب قام بهما الاخ الاكبر فعلا ليرغم
أخاه على بيع الارض له بعقد صورى ٠٠

ليس هذا فقط ، بل بمكالمة تليفونية مع القسم ، اتضح أن
القسم لا علم له بالورقة المحولة الى ، وانه هو الذى كتبها
ووقعها ٠٠ واستصحب معه العسكرى الذى كان لايزال منتصبا
فى مكانه لا يفقه حرفا مما يدور ٠

وحين عدت الى مسرح الاحداث فى وسط الحجرة كان الاخ
الاوسط يحتضن الاصغر وتتبادل عيونهما الدموع وبدرى
الاكبر واقفا شاحب الوجه يدافع بآخر رمق عن نفسه ، وكلما
تكشف الموقف عن دليل جديد ضده كلما ازداد شحوبه ونت
على جلده العرق الصغير الاصفر ٠

وأمرت بفك القميص عن محمد وبدأت أتأمل الموقف بينى
وبين نفسى لأعرف ماذا يجب على أن أفعله ازاء بدرى ، وهل

أحيله الى النيابة أم أكتب بلاغا لمأمور القسم ليتصرف معه ٠٠
واستقر رأيى على ابلاغ القسم ، وبكل الحقد الذى بدا يغلى فى
صدرى على هذا الاخ المجرم امسكت بالسماعة اريد ان املى
بنفسى الاشارة التى ستكلفه وظيفته وأشرطته الحريرية الاربعة
والقراريط التى ورثها وزوجته الحلوة التى بدات تولول فى
الخارج وتعوى ، وأكثر من هذا حريته اذ بالتأكيد سيحكم عليه
بالسجن ، ولن يقل سجنه عن أعوام ٠٠

وهنا وجدت المارد الضخم ينهار وهو الذى راح هذه المرة
يبكى وقد جفت دموع أخويه ويستعطف ويتهاوى على الارض
يريد أن يقبل قدمى ، وكلما رأيت هذا كله ، ازداد الحقد فى
صدرى عليه ٠٠ ازداد الى درجة رحت معها أهدهد على الاخوين
بكلماتى وأذكر لهما أن أخاهما الآثم وقع فى الحفرة وأنه لن
يخرج منها ٠

وصاح الاخ الاوسط : ينصر دينك يا شيخ ٠٠ يحيا
العدل ٠٠

وقال الاصغر بصوت واهن : مش قلتلك يابيه ٠٠

وقال بدرى فى هلع : أنا فى عرضك ٠٠ أنا صاحب عيال ٠

ثم التفت الى أخويه قائلا : مبسوطين يا ولاد طلبه ٠٠ أهو
بيتى اتخرب يامحمد يرضيكوا كده ياولاد طلبه ياولاد الحرام ٠

وقال الاوسط : جزاك ماصح لك ٠

وقلت فى سرى : وكل هذا من أجل قراريط ثلاثة ٠٠

وفوجئت بالحجرة تتحول الى مناحة ، بدرى يشهق بصوت
عال ، والاخ الاوسط بدأ يضم الاصغر حتى بعد أن انتصر
ويبكيان ، ولاريب أن أباهم طلبة كان هو الآخر فى قبره
يبكى ويتلوى ٠

وجاءنى من السماعة صوت أخنف مزعج يقول :

أيوه هنا القسم ٠٠ انت مين ؟ ٠٠

وأجبت : احنا مكتب الصحة ٠٠ خد الاشارة دى ٠٠

وعلا بكاء بدرى الى درجة غير معقولة ، بينما كف الاصغر
عن البكاء وراح يتطلع الى ، ثم الى أخيه ٠٠ ثم وجدته يترك
ذراع الاوسط الذى يضمه ويتقدم من المكتب ويرجونى ، بكل
ما فى طاقته من ذلة ، أن أوافق وأحيله الى المستشفى ان كان
فى هذا انقاذ لأخيه ٠٠

وسكتت الحجرة كلها ... ووقف بدرى جامدا في مكانه كالمصعوق ...

ثم وجدته يندفع الى محمد يحاول عناقه ، ولكن محمد دفعه عنه قائلا :

ـ دا مش عشان خاطرك .. دا عشان خاطر أولادك ...

ـ يا حبيبى يامحمد .. أنا عارف برضه انى ما اهونش عليك .

وفوجئت بالاوسط هو الآخر يتقدم ويرجونى ، ان لم يكن رجاء محمد صالحا للتنفيذ ان استبدل الاسم الاول فى الخطاب والاستمارة وأن أضع اسمه بدلا منه وانهياره الاعصابى والعلاج الذى أخذه يؤهلانه لدخول المستشفى واثبات أن بدوى على حق وانه لم يزور ولم يكذب .

واحترت ماذا أفعل والسماعة فى يدى بدأت تنقنق وتقول : ايوه يا مكتب الصحة .. وبدرى يقول :

أنا استاهل ودينى فى داهية ماترحمنيش ..

والاصغر يقول : كل اللى قاله بدرى مضبوط ، أنا مجنون .

والاوسط يقول : ماتسمعش كلامه أنا بداله ...

والسماعة معلقة فى يدى ينبعث منها الصوت الاخنف المزعج مستعجلا نص الاشارة وكأنه صوت القانون يطالب بتطبيقه وابلاغ الاشارة وسجن الاخ .

ويالها من لحظة ، تلك التى تحس فيها أن مصير انسان معلق بكلمة تقولها أو زناد تضغطه .

لحظة خيل الى انها طالت وامتدت وأن المشهد نفسه طال وامتد وتجمد وانه سيظل هكذا لن يتحرك أو تدب فيه الحياة الا حين افتح فمى وانطق كلمة .

ولامر ما أحسست انى ، بدموع داخلية ، أبكى ، وأتذكر أخوتى ، وأحس انى رابع الثلاثة الواقفين أمامى ...

وصرفنى الشعور بأنى لا يجب أن أفعل كما فعل الاخ الاوسط واضرب فى المليان ، وعن عمد قررت ان أنسى القانون ، واخطىء ، وانصت للهاتف فى داخلى ، وأسكت صوت السماعة ...

سنة ١٩٦١

هذه الحيرة



كان الضابط كريما ، ولم يشأ أن تتم الزيارة فى الحجرة المخصصة للزوار المملوءة بضجةعشرين مسجونا يقابلون بلهفة مجنونة مائة أو أكثر من الاهل ، والجميع يصرخون فى وقت واحد ، عبر السلك الاصم المستمتع بصممه ، لامر ما جعلها الضابط زيارة خاصة تتم فى حجرته ، ربما لان الزائرة كانت جميلة رقيقة ممشوقة القوام تضع على عينيها نظارة سوداء أنيقة وترتدى جوربا من النايلون الغامق . و (أمام) كان يعرف منذ الصباح الباكر ان له زيارة ، ولاربع ساعات طوال كان ينتظر ، والانتظار فى السجن ليس مؤلما ، انه عمل ، عمل طويل لا ينقطع ولا ينتهى ، يتسلمه المسجون لحظة أن يضع اقدامه فى العنبر ، اذ عليهمن لحظتها ، حتى لو كان الحكم مؤبدا ، ان ينتظر لحظة الافراج . وكل ما يفعله بين ساعة دخوله سجينا وساعة خروجه حرا طليقا ،أن ينتظر ، ينتظر الليل اذا جاء النهار ، وينتظر الغروب حين تشرق الشمس ، وينتظر وجبة العشاء المتواضعة أثناء توزيع الافطار ، انتظار يتكفل الزمن بتغيير طعمه ولونه حتى ليؤديه الانسان بلا ملل ، وانما باستسلام تام للانتظار وخضوع مطلق له .

منذ الصباح وهو ينتظر ان ينادى عليه الشاويش قائلا : «أمام محمد ابراهيم ·· لك زيارة» ، أربع ساعات طوال وليس فى عقله الا المفتاح حين يدور فى القفل ، أو صوت الشاويش الغليظ الهادىء الممدول وهو يقول : زيارة ·

أجل ستزوره سهير مرة أخرى · وهى دائبة على زيارته منذ أن دخل السجن ، لم تنقطع الا مرة أو مرتين ، ولكنها دائبة ، ودود ، مستمرة ، كالاحساس الدافىء بالامل · وهو فى كل شهر ينتظرها ، ولا يمضى الشهر الا اذا جاءت ، اذا تأخرت يوما أو أسبوعا توقف الشهر يوما أو أسبوعا ولا يتحرك ولا يبدأ شهر جديد الا اذا جاءت ·· ان ما بينهما ليس غراما مشبوبا ، فلقد كان يحبها ويحن اليها ويعشقها كما تعشق الليلات والجولييتات وهو حر ، ويرغب فيها أحيانا ويشتهيها كما تشتهى راقصة البطن حين تتلوى باغراء مثير أمامك ، وأحيانا يطمئن الى حنانها الاكبر من عمرها وطاقتها ويهفو ، وأحيانا يزور عنها ويضيق ، مثلما يضيق معظم الناس بحياة الزواج ، يحبها ويحب ابنته منها ، وابنتهما جزء من ذلك الحب ، كأنها التجسيد المادى لعواطف لا ترى ولا توزن ، ابنته كانت صحيحة حلوة ضاحكة متفتحة ، بضة وذات دلال ، تماما كما تتدلل امها الى درجة لا بد أن يتساءل الانسان معها ، ترى أهى صورة من أمها التى تحبه ويحبها أم هى صورة لما بينهما من حب · والخوف أيضا كان هناك · لقد انقضت ثلاث سنوات منذ ان كان معها فى فراش واحد ، ولقد رآها تضمحل ويسألها عن طعامها فتخبره انها لا تجد لديها الرغبة فى ان تأكل ، أو حتى ان تحيا ، وكان فى مرات يلحظ لونها أحمر على غير العادة كأنها تعانى من حمى ، ولا ينسى أبدا رعشة يدها ذات مرة ثم شفتيها ، ثم رعشتها كلها حين دلك كفها الممدود اليه وهو يودعها ذات زيارة · أحيانا كان يواتيه خاطر مجنون يهيب به أن يأخذها ، هكذا أمام الملأ وداخل السجن ، وليطلقوا عليه النيران ، كان هو الآخر يعانى ، ليس فقط من جسده ، وانما من كبت وجدانى كان الجسد وسيلته الى تخليصه منه ·· يعانى من احساسه باختناق قدرته على اعطائها ، من حرمانه أن يمنح بسرف وبذخ كما تعود أن يكون عطاؤه ،

كانا قد تزوجا عن اعجاب شديد تطور الى غرام وغيرة ومحبة وتضحية كقصص الحب العاصفة وتكفل الزواج بصهرهما معا ، لم يعد يحس بها منفصلة عنه ·· أو كائنا آخر مستقلا ·· لكنها اصبحت جزءا أنثويا منه أو لكانما اصبح جزءها المذكر ·· انها معه ، فيه ، داخله ، وهو يحس بنفسه هناك · فى روحها ، فى اعماق نظرتها ، داخل كل انكماشة وانبساطة من ضلوعها الدقيقة وهى تأخذ الشهيق أو تصدر الزفير · انه حتى يحس بنفسه داخل شعوره بها ، كل متلاحم كالكائن الحى لايمكن فصله ، وأى فصل له او انقسام لا يزيده الا حياة وقوة واتصالا ·

ودار المفتاح فى القفل ، ولم يسمع — رغم ترقبه له — ما نطق به الشاويش ، سار أمامه ، حليقا ، قضى وقتا طويلا يوصى المسجون الحلاق كى يجتث كل ناشز من شعره وينعم ذقنه ، قام بمحاولات الدنيا كى يستحم بماء ساخن ويلقاها نظيف الجسد لامع الوجه ، كان كأنما هو ذاهب لملاقاة الحياة ، تلك التى يبقى ميتا طيلة الشهر حتى تشرق عليه فى النهاية ، وبنظرة واحدة منها تلمسه لمسة ترد اليه الحياة ، حقيقة يحس بجسده يضطرب بتيار عارم متلاحق متشابك من الانفعالات والاحاسيس ، يحس بنفسه قد اتصل ببحر الحياة ، أصبح جزءا واعيا متفائلا من الوجود الميت الاحمق ·

ودخل الحجرة ، وشكر الضابط بكلمات غير واعية ، وعيناه تبحثان عنها ، كانت بجواره تماما ولم يرها · لم يرها الا حين سمعها ، تقول ، وكأنما تعبر عن الدهشة لنفسها : امام · التفت · كانت هناك · لم يتبين وجهها أول الامر ، كعادته ، كان دائما يخاف ، كلما مرت بخياله فى وحدته ، ان يفقد القدرة على تذكر وجهها بكل دقائقه ، وفى كل مرة يراها كان يجدها متغيرة ، أبدا لم ير لها نفس الوجه مرتين ، كل مرة يراها فيها سواء فى السجن أو خارج السجن كانت بوجه ، دائما جديد ومختلف وكأنه لم يره ، دائما متغير وكأنه لا يثبت على حال ، ولكنه ما يكاد يرى وجهها حتى يعرف ويدرك انه وجهها ، وانه هكذا كان يبدو ، وهكذا سيظل يبدو الى آخر

العمر ، وجهها ٠٠ الذى له ، يضحك له ، ويعبس بسببه ، ويحلم به ويشتاق ، ويشبع حبها من خلاله ٠ وكما التقيا كانت تحدث هذه الالتماعة ، فى عينيها وعينيه ، حتى لكأن شرارة تحدث ، وضوءا مفاجئا ينسكب فيعشيهما معا ٠٠ لومضة ، ويحس انها لا تراه بقدر ما تدرك وجوده ، وتحس كأنما عثرت على كنزها المنشود الذى ظلت تبحث عنه ولاتكاد تصدق عثرت عليه ورغم هذا لا تطمئن أبدا الى عثورها عليه ٠

ودون ان يشعرا ، اقتربا ، وتلاصقا ، كما يحدث دائما كل اقتراب لهما وتلاصق ، وامسك بذراعيها فى قبضتيه ، ومن اول لمسة أحس بذلك الشىء الذى كان عليه أن يدركه حالا ٠ وتأملها عن قرب ٠ كان لا يزال غير قادر على رؤيتها بدقة ، وكأن الشرارة المعشية لا تزال هناك ، وكانت تبتسم ، ولكنه كان يحس انها تبتسم لانها تريد بارادتها ان يراها مبتسمة وليس لانها فى أعماقها تريد الابتسام ٠ ربما لو تركت نفسها لسجيتها لبكت او لعانقته أو لاندفعت مقدمة على عمل احمق ٠ كانت ابتسامتها ربما علامة عجز ، عجز عن أن تصنع شيئا آخر ٠ وصدرت عنها الكلمات السريعة المتلاحقة التى تصدرعن كل الناس فى مواقف كتلك ٠ ازيك ٠ صحتك ٠ وحشتنا ٠ نوسة ، كلمات ، تحركات أفواه وتقلصات ألسنة وحناجر ليس الا ، فالعقل مشغول بأشياء لايمكن التعبير عنها بكلمات ٠ العقل مشغول بعملية تفحص كاملة تامة ، كل يتفحص الآخر ، بأجهزة لا أسماء لها تقيس كل دقيقة فيه ، ليطمئن الى انه هو ، وانه لم يتغير ، او ان كان قد تغير فانما الى ارتباط اكثر وحب أقوى وتعلق لا حدود له ٠ اجهزة دقيقة شاملة منتشرة فى كل اتجاه ، تستقبل وترسل ، وتمتص وتفرز ، كل خلية وكل عضو فى الجسد كأنما يريد الاطمئنان على الجزء المقابل له ٠ كان يشتاق اليها بنفسه كلها ، بيديه وأنفه وشعره المجعد ٠٠ بشاربه الحليق ، بالحسنة السوداء فى اذنه ، يشتاق اليها كلها ، للبحة فى آخر صوتها ، لرائها الغينية حين تنطقها ، لتغابيها عليه ، لتدللها اياه ، لمميهة الغناء غير المجملة حين تدندن بها فى ساعات التجلى ، لكل شىء حتى لاصبع قدمها الصغرى الخالية من أى ظفر ٠

واحس بنفسه قلقا على غير العادة ، أطالت أجهزته التفحص والقياس والاستقبال ، وأكثرت من التجاوب والاعطاء ، لم تستقر على رأى بعد ، وربما لهذا ظل يردد ٠٠ ازيك ٠٠ صحتك ٠٠ اللذيذة نوسة وضرسها المؤلم الفاسد ٠٠ فى كل مرة كان عقله يستمر يردد هذه الكلمات الى ان تكتفى أجهزة جسده وتعطيه اشارة خفيفة انها انتهت ، حينئذ كان العقل يبدأ عمله ، ويستطيع أن يعود يعقل وينظر ، ويتأمل ويدقق ، لتبدأ النظرة الثانية ٠ النظرة المتمهلة المتمعنة التى لا قلق فيها ، نظرة ما بعد القلق والعاصفة ومفاجأة اللقاء وذهوله ، حتى ولو كان موعد الزيارة معروفا فاللقاء دائما مفاجأة يطير لها الصواب ، نظرة المتعة بالرؤية والالتهام ، التهامها ، بالمزاج والراحة وأقصى درجات السعادة ٠ ازاى نوسة ؟ رابع مرة فى دقيقة واحدة يسألها سؤالا أقرب للاستعجال منه الى السؤال ، وليس استعجالا لها وانما استعجال لنفسه اللاواعية ان تنتهى من اجراءاتها الكثيرة المعقدة وتؤوب اليه ، ليؤوب اليه اطمئنانه ووعيه ٠ كويسة قوى ، مشتاقة لك ٠ هى الاخرى تجيبه ناظرة فى عينيه ، شاخصة اليه كأنما تنتظر أن ترى فى عينيه شيئا ، اشارة أمان تعودت رؤيتها ، جواز مرور ، نظرته هو ٠ الحقيقة التى تعرفها حين ينظر بها اليها هى ، وتراه ينظر اليها هى دونا عن الكون والدنيا ، هى فقط التى تكون فى عينيه وكأن العينين تصبحان عينيها ، عينيها وحدها ، عيناه وعيناها ، وبدأ القلق يدب ويهدد بأن يصبح توترا ، ولم يكن يريد أى توتر ٠ كان يحلم منذ الصباح بأن تتالى ، فى نعومة ويسر ، نظراته ، الاولى المذهولة ، والثانية المستمتعة ٠ والثالثة حين تبلغ المتعة حد النشوة ، والرابعة الحالمة المكتسحة الخارجة به وبها من خلف الابواب الموصدة الى الدنيا المتسعة ، الى الغد ، الغد الطويل الممتد الذى لا نهاية واضحة له ٠ أى تلكؤ حرمان ، وزمن الزيارة قليل ، وعقله من خوفه يساهم فى الاسراع ويكاد يقسم لاجهزته وحواسه الظاهرة والخفية ان كل شىء على مايرام وانها هى ، وجهها القمحى هو هو ، عيناها العسليتان الواسعتان ذواتا الحدقتين المكونتين من الف لون ولون ، المشعتان بالف

شعاع وشعاع ، شعرها الاسود اللامع أسود ولامع ، فورمته مختلفة ولكنه شعرها ، روحها هى نفس روحها أو تكاد ، لا خلاف يذكر أو يلحظ ، ولا يمكن ان يكون هناك خلاف ، انأى خلاف معناه اختلال فى نظام الكون لابد ، صحيح انها معتنية بزينتها أكثر من كل مرة ، قلم الحـــــواجب واضح خطه فى حواجبها ، والريميل يرمل أجفانها اكثر ، وأن كانت فسفوسة صغيرة لابد من أثر الجو او الهضم قد نبتت فى زاوية فمها الا ان شفتيها هما شفتاها ، بروزهما الى الامام لم تتغير درجتـه والروج ينطبق تماما على حوافهما كما تحب أن تبدو ، لا شىء تغير ، بل ربما اللهفة أكثر ، وقلقها للعثور عليه فى عينيـــه وعلى نفسها داخله أكثر ٠

ولكن نفسهاستمرت تتفحصها غير مباليةبقلقه أو استعجاله أو ضيقه ، مندهشة لا تزال ، غير مدركة تمام الادراك ما ترى، تتفحص ، بلا وعى تتفحص ، دون أن يشعر بها أو يسمح لها، تتفحص ، كأنه يراها لاول مرة تتفحص ، ماذا هناك يا ترى ؟ ماذا يوقفها ويبقيها ؟ ماذا يدهشها ويذهلها ؟ ما المجهول فيها وهو يعرف كل لمحة منها وفيها ٠٠ لا أحد ، لا عقله ٠ ولا جهاز من اجهزته يرحمه ويجيب ، أو حتى يعرف ويدرك ولا يجيب ٠ وكلمات الشوق والترحيب مستمرة ، عصبية ومن وراء القلب، ولمجرد قول شىء ، مستمرة ، والحجرة تبدو أحيانا واسعة كفناء السجن ٠ وأحيانا تضيق لتصبح أضأل من الزنزانة ، والضابط جالس الى مكتبـه منجعص الى الخلف بالجريدة مفتوحـة وبعين نصفها يقرأ ونصفها الآخر مضاف اليه انتباهه كله ، يراقب ما يدور بين الرجل والمرأة ، لا يراقب محرمات أومخالفات ، وانما على الرغم منه ، ولمجرد حب الاستطلاع يراقب ، مراقبة لا يراها أى منهما ولكنهما يدركانها تمام الادراك ويستعجلان اللحظة التى يندمجان فيها معا ويغيبان عن الوعى بالزمن والمكان وحتى بهذه الرقابة من الضابط ٠

لحظة طالت وامتدت حتى أصبح تاخرها امرا واضحا لاشك فيه ، أمرا يدفع الى الموقف بكميات أكبر من القلق ، قلقـــه ، وقلقها على قلقه ٠٠ وقلقه حتى من قلقها عليه ٠

فجأة أفلت الزمام منه ، ووجد نفســه يســألها : ايه اللى حصل ؟

وكان بوسعها أن تساله ماذا يقصد ، وعن أى شىء بالضبط يتحدث ، ولكنها مثله لا تريد للوقت أن يضيع ، وتخاف ان يضبطها فى لحظة تغاب ، ان السؤال وان كان يبدو مائعا عائما الا أن الصوت الذى نطقه به كان محددا مستغيثا يطلب اجابة حاسمة تشفى الغليل ٠ وبسرعة وبحسم قالت : لا شىء حدث٠ مالك ؟ أنا !؟ مامماليش ٠٠ لا ٠٠ لازم فيه حاجة ٠٠ حاجه ايه؟ ولا حاجة ٠ انتى متغيرة ٠ أنا ؟! متغيرة ازاى ؟ لازم مش انتى ٠ ازاى مش أنا ؟ أنا أنا ٠٠ كـل مـرة أنا أنا ٠٠ انما المرة دى انتى مش انتى ٠٠ أمال مين ؟ أنا مين ؟ أنا سهير بتاعتك مش فاكر ! صحيح بتاعتى ! ودى عايزة سؤال يا أمام ٠٠ بتاعتك بتاعتك بتاعتك ٠٠ انما برضه يا سهير لازم فيه حاجة ٠٠

ولاحظ ارتجافه عابرة جدا سرت بشفتيها لم يكن ليلحظها لولا فسفوسة عسر الهضم ٠ وأمام الحاجز الذى اقيم بدأت العواطف تتجمع بسرعة وتتزايد وتتراكم وتهدد باكتساح السد الذى اقامه للاسبب معقول أو غير معقـول أو بصناعه مجرى جانبى آخر ٠ وهكذا كان لا بد ان تاتى النظرة الثانية ، بحكم قانون القوة جاءت ووجدت وأصبحت أمرا واقعا ، ولكنهـا لم تات كمـا تعـودت ان تاتى كل مرة ، حين تحل محل النظرة الاولى الحيرى المتسائلة المذهولة ، جاءت النظرة الثانيـة هذه المرة دون أن تختفى الاولى أو تزول ، تراكمت فوقهـا ، فوق الذهول والحيرة والتشتت ، وايضا لم تكن نظرة اســـتمتاع والتهام متمهل سعيد منتش ، جاءت مختلفة ، غريبة ، مجرد رغبة اعظم فى بحث متعجل حاد ، لهفة ، احساس دافق قوى بضرورة العثور على نهاية ، على قاع ، على حقيقة ٠

ـ فيه ايه يا امام ؟

سؤال منزعج من فم منزعج والملامح التى أطلقها فيها رجفة لابد رجفة اضطراب ، لم يكن قد حدث ما يستدعى السؤال أو الانزعاج ، كما لم يكن قد حدث ما يستدعى سؤاله المفاجىء عما يمكن ان يكون قد حدث ٠ ولكن المشكلة انه لم يكن مطلوبا أن يحدث شىء واضح ليســـال أحدهما الآخر ، أو يفزع ، ان

الحياة معا فى حب أو زواج • صنعت مثلما تصنع لكل الناس • ذلك الالتحام الشامل الذى - يجعلك تفهم الآخر وتحسه ربما قبل أن تفهم نفسك أو تحسها ، تفاهم بالاحساس يتم بالتأكيد قبل ان يتم التفاهم بأى لغة اخرى حتى لو كانت لغة العين والنظر ، انه تشابك الافرع والاغصان والاوراق وتداخلها فى شجرة احساس واحد مسيطر ، حالة لا يزيدها البعد الا حدة ، والحرمان الا شحذا ومقدرة ، وكلما ازداد الطرفان بعدا ، اقتربا وأصبحا اكثر تشابكا •• فانفصال أيهما عن الآخر فى الزمن أو المسافة لا يبعد ولا يعزل ولكنه يقرب ويكثف ويربط ، فيه ايه !؟ أى نعم فيه ايه •• وايه بالضبط زى سؤالك حصل •• انطق •• نعم •• فيه ايه •• أبدا ولا حاجه •• اذن لم يحدث شىء وليس هناك شىء !؟ ما الامر اذن ؟ ماذا هناك ؟ ماذا دهاك ؟ ولو كان الوقت يسمح لاستمرت المطاردة الخالدة غير الجديدة على علاقتهما •• الى مالا نهاية •• ولكن الوقت ، كان مدببا ، كالترس المسنونة تروسه • كلما دار وخز وآلم ونبه وجأر بأنه يدور ويمضى مهددا بقرب انغلاق دائرة الدقائق العشر المصرح بها •

ولكن ماذا يصنع أو يقول فى موقف لم يحدثه هو بارادته ؟ فى موقف تكوم وتكون وتراكم وتشكل حقيقة واقعة دون أى تدخل ارادى او عقلى او حتى وجدانى منه ، انما حدث هذا وكأنما حدث بواسطة جسده وأعضائه وعضلاته وعظامه والاجهزة اللاارادية الغريبة المركبة فيه ، فى موقف هو عاجز عن فهمه وادراكه • موقف حدث لا يدرى كيف ، ومستمر فى حدوثه لا يدرى كيف أيضا ، وسادر فى استمراره الى مايبدو انه اللاحل واللانهاية ، لا يدرى كيف أيضا ، سهير يا حبيبتى أنت أنت ، لم يتغير فيك شىء ، أليس كذلك !؟ بل تغيرت باامامى وأصبحت أحبك كما لم أحبك من قبل أو من بعد •• ليتك تؤجلين الكلام عن الحب ، كل كلام عنه أحس به غير طبيعى •• ومصطنع من أجل هذا الموقف ، ان الحب يأتى بعد الاطمئنان ، وانا لاأزال لم اطمئن ، نفسى التى تحركنى وتشعر لى لم تطمئن ، عقلى لا يزال مذهولا يبحث عن خلجة اطمئنان ، ومنك يأتى اطمئنانى ، وفى يدك الحل اذ التفسير لا بد عندك •

أنا أنا لم أتغير ياسهير ، أنا كجدران الزنزانة ، كساعة (التمام) بعد الظهر ، كوقع الاحذية الثقيلة على بلاط العنبر ، انا مثل أى شىء وكل شىء هنا لا اتغير ولم اتغير • أنا ثابت وانت المتحركة ، انت الطليقة ، انت المتغيرة •

ولكن يا حبيبى برغم انى طليقه ومتحركة، برغم وجودى فى الخارج الحر انا معك ثابته لا أتغير • انا هنا وان كنت ابدو هناك ، انا سجينة داخل ما هو أفظع من سجنك ، داخل الحياة الطليقة ، كلام جميل مثل حوار أفلام الحب ولكنى لا أريده ، وان كنت فى كل مرة أسمعه أجن الا انى لا اريده • هناك شىء مؤلم حاد يشتتنى ويجعلنى لا أريد أن أصغى قبل أن أوقن واعرف • تعرف ماذا ؟ اعرف من انت ؟ ان فيك شيئا لا اعرفه يجعلنى احس انى لا اعرفك كلك ، شىء جديد غريب على ، حواسى تحوم حوله وتجفل ولا تستطيع ادراكه • اراه ببصرى ولكن لا اعيه • أيكون قد حدث شىء يا سهير ؟ أيكون ؟ أرجوك • دعينى أعرفه ، كيف ؟ اعرفيه انت واعترفى لنفسك به فأعرفه أنا • حوار غير منطوق أو مسموع او حتى مار عبر العيون ولكنه رائح غاد فى سرعة وتحفز ككرات البنج بونج لا يستقر ولا يهدأ وانما تزداد به النظرات جهلا واستيحاشا وتوترا ، ويزداد به الزمن وخزا وايلاما ، لم يبق على انتهاء الزيارة سوى دقائق ثلاث أو أربع • سهير ياسهير • أنت لى • كلك لى • حتى ما فيك من خطأ لى • بحقك على وحقى عليك اخبرينى ماذا حدث ، اذ مهما كان ما حدث فهو فسفوسة يا سهير بالقياس الى حياتنا ، فسفوسة لا أعرف لها مكانا ولا سببا ولا اسما ، أحس بها تافهة سطحية تكفى ضغطه صغيرة لتنمحى وتتلاشى ، كل ما يضخمها ، كل ما يعرقلنى عنك ، انها غريبة على لانها غريبة عليك •

- انت شايف ايه ؟ ••
- مش عارف •
- عايز تقول ايه ؟
- مش عارف •
- شاكك فى ايه ؟
- مش عارف •

– أمال فيه ايه ؟
– مش عارف ٠ أنا خايف ٠
– من ايه ؟ على ٠٠ ما تخافش
– ده كلام يمكن من قدامى بس ٠
– قدامك ومن وراك ٠
– أمال أنا حاسس بيكى متغيرة ليه ؟
– يمكن احساس خاطىء ٠٠

– وهو عمر احســـاس اللى بيحب بيخطىء ٠٠ أبدا أبدا يا سهير ٠٠ عمر احساسى بك ما أخطأ ٠٠ عقلى بيغلط انمـــا احساسى لا ٠٠ وده هو اللى تاعبنى ٠٠
– انت بس اللى عاوز تتعب نفسك ٠
– وحد بيعوز يتعب نفسه ؟
– أيوه ٠٠ لما يكون مسجون وبعيد ٠٠ وبيحب ٠٠ يخاف على حبيبته أو مراته فيشك ويخاف ويتعب نفسه ٠٠
– ده كلام معقول ٠ انما أنا اللى حاسه حاجة فوق العقل ٠ حاجة قبل العقل ٠٠ حاجة أصدق وأعمق من العقل ٠٠
– اسمح لى دى قلة عقل ٠

ولكنها قالتها بروح لا مرح فيها ولا رغبة فى المداعبة ، وهذا ما أحزنه ، لو قالتها كنكته لبدت طبيعية وربما حلت الموقف كله ، ولكنها أخذتها جدا ٠٠ وأردفت :

– اشمعنى المرة دى يعنى ؟
– ده بالضبط اللى بقوله لنفسى ، كل مرة تيجى تزورينى هنا ، اشمعنى المرة دى ؟
– أيوه اشمعنى المرة دى ؟ ٠٠
– لان لازم حصل فيه حاجة ياسهير ٠ أنا حاسس ٠

والكارثة فى هذا الاحساس الذى لا يناقش ، كالحكم الذى لا نقض له ولا راد ، كالامر الواقع ، احساس غير خاضع لمنطق أو فكر ، ولكن له قوة اعتى من قوة المنطق والفكر ٠ للمرة المائة يتأمل وجهها ، انه هو الآخر أمر واقع ربما ينجح فى دحض احساسه ونسفه ، ولكن حتى وجهها تكفلت المنطقة الغريبة المجهولة بالزحف عليه والامتزاج بلونه وملامحه وتغيير لونه كما يتغير لون الماء اذا سقطت فيه نقطة حبر ٠

ومالت على اذنه مرة وهمســـت له بكلمة ، اعقبتهـا بضحكة عالية جعلت الضابط يرهف اذنه ويكاد يمدها لتتسقط ما بين فمها ومسامعه ويعرف سبب الهمسة والضحكة ٠ اما هو فلم يهضم لا الهمسة ولا الضحكة ، الضحكة فى مظهرها بريئة ، قريبة منه ، تبدو كنفس ضحكتها البريئة ، ولكنها البراءة وقد زحف عليها ذلك الشىء الغريب المجهول فاحالها الى ما يشبه التهتك والرقاعة ، ان راسه يكاد ينفجر ٠ لم يعد باستطاعته ان ينظر اليها أو يشعر بها كما تعود ان ينظر أو يشعر ، فى غيبة عقله ، كما لابد فى غيبته حدث شىء ٠ شىء غامض محير مجهول ، لو كان طليقا لظل وراءه يبحث ويســـتقصى حتى يدركه ، ولكنه هنا مقيد محبوس ، وظيفته الاولى أن يبقى جاهلا بمعزل عن كل ما يمكن أو بالاستطاعة معرفته ٠ انه هنا فقط يسجل ، يسجل حتى دون أن يشعر ، وقد سجل مافيها من غربة ، ولينفجر عقله فى محاولة التفسير أو التبرير فاحساسه لن ينفعه ، سيغادره تاركا اياه وحده مع التصرف أو بالضبط مع عدم القدرة تماما على التصرف ٠ انه الجحيم حتما ، بل ربما الجحيم ارحم ، انه السجن ٠

صيف ١٩٦٤



لغة الآي آي



لم تكن بالضبط صرخة ولكنها كانت الاولى ، بعد منتصف الليل بقليل ، تصاعدت ، غير آدمية بالمرة ، حتى الحيوان ممكن ادراك كنه صوته ، ولكنها بدت لاول وهلة جمادية ذات صليل ، كعظام تتكسر وتتهشم تمسكها يدا عملاق خرافي القوة وبنية صارمة لا رحمة فيها تدشدشها . فجأة وفى المنزل الهادىء المظلم الفاخر الاظلام ، السابح فى سكون مسود تلمع فيه حواف الموبيليا الانيقة الموزعة بعناية وذوق ، بيت ساكن نائم يرفل فى رائحته الليلية الخاصة التى تميزه عن أى بيت ، وفى الحى المترف الذى تتشابه نوافذه واضواؤه واحدة وراء الاخرى ويؤوب الى الرقاد على ضجة المدينة ووسطها المستيقظ كغمغمة غارق فى الاحلام .

وفى وسط هذا كله ، ومن مكان لا تستطيع تحديده أو تعرف ان كان يمت حتى الى الحى ، تصاعد ذلك الشىء الغريب الغامض الاول ، مفاجئا وكالطعنة الملتاثة ، حافلا بأنين التمزق ، وكأنه صادر من حنجرة تتمزق احبالها الصوتية لتصدر الصوت ويكاد يمزق طبلة أى أذن يقع عليها .

ودونا عن سكان الحى والبيت ، بدا وكأنه الكائن الوحيد



الذى سمعه . كان مغمض العينين لا يزال بينه وبين النوم مشكلة لابد لها من حل ، ومر الصوت مفاجئا غير مألوف من الصعب تبينه ، ولكن جسده فى اللحظة التالية كان يقشعر بخوف طفلى مذعور ، وان لم يستغرق زمنا ، اسلمه الى عينين مفتوحتين لآخرهما ، وقلق وعاصفةمن الاضطراب ، فالاحساس التالى الذى واتاه كان احساسا بالذنب ، شعور غامض يربطه بالصوت ، ويؤكد أن الصلة بينهما من صنعه ومسئوليته ،وان عليه وحده يقع التحمل للنهاية . وبالغريزة التفت ، كانت زوجته لا تزال على وضعها ، فقط فى اللحظة التى التفت فيها ماءت مواء طال بعض الشىء ، ثم بارادة نائمة انتقلت الى جنبها الايسر وقربت ساقيها ، ربما كان الاثر الوحيد الذى أحدثه الصوت فى جسدها المستسلم لأول مراحل النوم . وارتاح وبعض الشىء اطمأن وهو يواجه الامر وحده ، فقد كان ظهورها على المسرح لحظتها كفيلا بزيادة ارتباكه .

ما هذا الصوت ومن أين جاء ؟

فى لحظة مر بخياله الف احتمال ، الا الاحتمال الوحيد الذى كان يخاف مروره . لم يكن قد تغير فى البيت أو فى الحى اوفى دنياه كلها شىء ما عدا ذلك الشىء الواحد الذى اغتم له . . ولا بد أن يكون الصوت الجديد من صنع القادم الجديد حتى ولو نفى عقله بشدة ، وأبى أن يصدق .

ولم يشأ أن يفكر أكثر ، مجرد صوت وحدث ، المهم ألا يعود يحدث ، ومر بعض الوقت ، احال اللحظة الى دقيقة ، او دقائق، ولا شىء يتغير داخل الليل الساكن ، والامل يقوى . .

ولكن وشوشة غامضة حدثت ، اندفع منها الى أعلى فجأة صوت كالطوفان الهادر العمودى له وقع العظام نفسها وهى تسحق وتتدشدش ، صوت اقرب الى رعد تنفثه السماء فى ماسورة مكتومة ، مالبثت أن فتحت وسلكت فى استغاثة راعدة مولولة ممدودة يخاف صاحبها أن ينهيها وكأنما الموت عند نهايتها .

انتهى الامر . لم تعد هناك فائدة .

كان هذا الصوت الثانى مزعجا حقا حتى انه ، مع علمه هذه المرة وتأكده من مصدره ، لم يستطع كبح جماح ارتجافته ، ليس

خوفا منه ، وانما من الشىء المجهول المروع الذى يختفى لابد وراءه ويحدثه . مزعجا ومحيرا الى درجة لم يلحظ معها ان رفيقة الفراش قد اعتدلت نصف اعتدالة والتفتت اليه قائلة بهستريا مفاجئة :

ـ ايه ده ؟ قول لى بسرعة وحياتك ايه ده ! وحياتك بسرعة بسرعة بسرعة .

وقبل ان يفكر فيما يقول انخلعت عنه ، ناظرة اليه بشك متوحش :

ـ أوع يكون هوه ؟

وقبل ان يفتح فمه اردفت :

ـ أنا مش قلت . انا مش قلت . اتفضل بقى . اتفضل بقى . انا مش قلت .

وحقيقة لقد قالت وعارضت وكل ما حدث كان رغم قولها وارادتها ، وبالتأكيد هى الآن بسبيلها الى اعادة ماقالته . وعليه أن يتذرع بالصبر ، ويقول لها كلاما مطمئنا كثيرا . . انها مجرد آهة . . آهة ستمر ، ويعود كل شىء الى سابق عهده . .

أكان معقولا أن يعود أى شىء ليلتها الى سابق عهده ؟ الكلام نفسه وربما الالفاظ نفسها .

وما فائدة الكلام ، والكلام الذى دار كثير ، وقد كان ممكنا ، مادام الوضع هكذا . زوجة حلوة قوامها كقوام المانيكان ، وساقاها حتى فى الظلام يظهران من قميص النوم فى اغراء لاجمهور له ، وحتى هناك تواليت وماكياج للنوم وعناية خاصة بالشعر ، ودهان مخصوص للبشرة وزوج هناك دائما بينه وبين لحظة النوم مشاكل لابد لها من حل ، زوج امتلأت روحه بالتجاعيد مثلما فقد رأسه الكثير من الشعر وعيناه القدرة على الرؤية . . مادام الوضع هكذا . فقد كان ممكنا أن يدور الكلام نفسه وربما الالفاظ نفسها حول أى موضوع ، كالعادة ، لاتلتقى عنده وجهات النظر . المهم انهم أصبحا بشىء من التحدى ينتظران الصرخة الثالثة ، التى لن تجىء كما يؤكد الزوج والتى لابد أن تأتى كما تصرخ الزوجة بعض الطبخ ،

هذه المرة كان المصدر واضحا ولا شك فى أمره ، انطلق مواء كمواء القطط ، يحاول صاحبه كبته وخنقه فيخرج مضغوطا ثاقبا ارادته فيبدو كما لو كان رجل قد قرر بجماع ما يمتلكه من قوة ، وبسبق اصرار ، ان يتاوه كما يريد ، ولتقم القيامة بعدها ، انطلق صفير معذب متألم متظلم باك غاضب كافر مستغيث بائس مؤمل زاهد ٠٠ آى ، آى ، آى ، آى طويلة وقصيرة ، ممدودة ومبتورة ، عالية بكل قواه يرفعها ، منخفضة بجماع ارادته يخسفها ، مجروحة دامية ، لاسعة كالنار فى العين ، كاوية كصبغة اليود فى الحلق ٠٠ حارقة كآثار الحامض المركز ٠

فتحت الزوجة فمها تصرخ فى هوس من تأكد قولها ، وانتظرت ان تنتهى الصرخة لتطلق صرختها هى ، ولكن انتظارها طال ، وبدأت رغما عنها تسمع ، ومن الذهول استمر فمها مفتوحا واذناها بأمر قوة قاهرة تصغيان ، ثم بدأت ترتجف وتقترب من زوجها وتمسك بيده لتوقف الرجفة ، وفى نفس اللحظة التى كانت قد قررت فيها أن تطلق لفزعها العنان وتستغيث صارخة ، انتهت الصرخة فجأة ، وكأنما انكسر الجهاز الذى يصدرها ٠

وكان الصمت الذى حل تاما ساحرا كالدواء الشافى المعجز لو لم يحل ، وفى اللحظة التى حل فيها ، وعلى تلك الصورة الكاملة ، لفقد احد او الجميع عقولهم ٠

قالت الزوجة بعد جرعة صمت سخية : كده يا حديدى ٠٠ كده ٠٠

واجاب بهمس ، مناه الا يصدر : ارجوك يا عفت ٠٠ ارجوك ٠٠

ولكنها لم تستجب ٠ بفحيح اكثر انخفاضا والحاحا سألته: بس انا عايزة اعرف ٠ ارجوك انت ٠٠ انا ح اجنن عايزة اعرف ٠٠ ماوديتوش فى لوكاندة ليه ٠٠ ماسبتوش يتحرق مع أهله ليه ٠٠ عملت كده ليه ٠ أرجوك قولى بس ٠ ٠ عشان ما اجننش ٠٠

كيف يخبرها وهو نفسه لا يدرى لماذا أقدم على ما اقدم عليه ٠

كان قد اتخذ قراره من زمن وكف تماما عن مساعدة اهل « زينين » وتوظيفهم والتدخل لقضاء المصالح ٠ ان اهل بلده هؤلاء لايكاد يبرز من بينهم واحد حتى يتسابقوا الى جذبه الى أسفل واغراقة فى حل مشاكلهم ٠ مشاكل لو تفرغ لها لاحتاج لاضعاف اضعاف عمره ، فلا يوجد انسان الا وله مشكلة حادة ملحة تطلب الحل وتستحثه ، ومائة الف نسمة فى زينين وما حولها بمائة الف مشكلة ، بقرار حاسم باتر منه ان تبقى له حياته الخاصة ومشاريعه وطموحه وان ينفض عن نفسه هذه الايدى الكثيرة التى تريد انزاله وجره الى حيث هم وكانما لا يطيقون رؤية البارز العالى ولا يستريحون حتى يبرك مثلهم ويعجز ٠

ولكن السكرتير جاءه قرب الظهر قائلا ان ابا فهمى وعمه بالخارج وانهما يريدان رؤيته ٠ وحياته ليس فيها الا فهمى واحد ، أول ،وربما آخر طفل أوانسان يعترف الحديدى لنفسه انه اذكى منه ٠ كان فهمى اذا وقف ليجيب وقد عجز الفصل عن الاجابة التفت الحديدى بكليته ناحيه ، يتأمل ملامحه الشاحبة ، ووجهه الملىء بالعظام الناتئة والذى تكسوه مع هذا غلالة من مهابة خفيفة ، مهابة التفوق او العبقرية ، وكل كلمة ينطقها كان يتأملها وتبهره حتى الطريقة التى ينطقها بها ، فكل كلمة كانت الصواب بعينه ، كل كلمة بالضبط ما يجب ان يقال وما يعجز الجميع عن قوله ، فهمى كان يقولها ببساطة ودون اى جهد ، فى ذلك الفصل من المدرسة الالزامية ذى الجدران المتساقطة الطلاء الكاشفة عن الطين الذى بنيت به الحيطان ،الفصل ذى السبورة الكالحة البالغة الصغر وكانما هى

سبورة خاصة لتلميذ واحد ، المزدحم بعشرات الطواقى الصوف والبيضاء القطن واحذية الاخوة الكبار أو ربما الآباء والقباقيب والحقائب القماشية التى صنعتها كل ام لابنها ، او خيطت على المكنة فوق البيعة مع الجلابية ، الايام الاولى التى كان الحديدى يتعرف فيها على مدخل العالم المقروء المكتوب ويحاول أن يحذق مبادىء اسراره ، وفهمى رفيق تلك الايام ومثلها الاعلى ٠٠ ايكون اهله هم من ينتظرونه بالخارج ٠

وامر بدخولهم ..

ومن باب الحجرة دخل ثلاثة او اربعة اناس منحجم قصير تخين واحد ، ورابعهم مثنى على نفسه لسبب مجهول . أجال بصره فيهم . ان ملامح فهمى محفورة فى ذاكرته لا تمحى او تموت . واجال بصره محاولا ان يعثر على من يصلح ليكون ابا لفهمى او عمه .. ولكن ملامحهم بدت غريبة حتى على اهل زينين بشكل عام ..

– امال فين فهمى ؟

وتسابقوا فى ارتباك عظيم يجيبون ، وينتهون الى الاجماع على الاشارة للشخص الرابع المتنى على نفسه .

– ده ..

– ايوه يا بيه ..

– انت ؟ ..

– ايوه يابيه .. هو ..

– ايوه .. يا ..

ورفع رأسه يواجهه رغم بقائه متنيا ، وحدق الحديدى طويلا فيه كمن يفتش فى كومة من قش قديم عن ابرة ملامح لطفل صديق كان أعز عليه من نفسه ..

– أنت فهمى ؟!

– أيوه .. يا .. فاندى ..

جاءه الجواب من وجه كالمومياء الخارجة لتوها من القبر أو المستعدة توا للدخول فيه ، وجه منقبض بالالم وكأنما ثبتت ملامحه عنده وحنطت عليه ..

– انت فهمى أبو ..

– أيوه .. أبو عنزه يابيه .. ده كان معانا فى المدرسة .. بس حضرتك مش فاكر .

أمعقول هذا ؟ من الطفل المرتب النظيف الذى تحيط بوجهه مهابة النبوغ ، ومن العينين اللتين يطل منهما الذكاء النفاذ والقدرة المعجزة على الادراك ، اين هذا من ذلك الرجل الذى يبدو عجوزا محطما تجاوز الخمسين ، المظلم القسمات كالأرض البور ، المطفأ العينين لضيقهما كشريط اللمبة حين يحمر من تلقاء نفسه ويقصر ويحترق لدى فراغ الكيروسين .

وأحس بفجيعة ذات طعم خاص ، كان دائما متأكدا انه سيلقى فهمى يوما ما ، وبان يعد العدة لهذا اللقاء الحافل . ان قدرا كبيرا من الرهبة التى يحسها لفهمى مبعثه انه كان يتخيل دائما أن فهمى سيظل متفوقا عليه وعلى الاخرين ، وأن الذى باستطاعته ان يتفوق كطفل لابد باستطاعته أن يتفوق كشاب ثم كرجل . ولم يكن أبدا يتصور أن اللقاء سيتم على هذه الصورة وان الطفل الذى فى ذاكرته سيتمخض عن هذا الرجل . كان يدخر للحظة التى يقابله فيها كلاما كثيرا يريد قوله ، وكيف انه اذا كان قد أصبح الاستاذ الدكتور الحديدى أكبر مرجع فى الكيمياء العضوية فى الشرق ، واذا كان قد أصبح رئيس مجلس ادارة مؤسسة كبرى ومرشحا أكثر من مرة للوزارة وعضوا فى عشرات اللجان والهيئات العلمية فى الشرق والغرب فجزء كبير من هذا الفضل يرجع لفهمى ، فقد كان الصوت الذى ظل لاكثر من ثلاثين عاما من الزمان يلهب طموحه ويدفعه للتفوق حتى ينتصر ، ولو مرة واحدة ، على الطفل العبقرى الذى ظل يحافظ عليه فى ذاكرته كصور القديسين التى لا تمس . وها هو اللقاء ، وها هو القديس .

– انت فهمى أبو عنزة ؟

– ايوه يابيه .

– فاكر العنزة ..

– عنزة ايه يابيه ؟

العنزة التى سرقها ليشترى لحسين أبو محمود والد منصور الالدغ حقن الدواء ٦٠٦ التى قيل انها بخمسين قرشا وانها دواؤه الوحيد . فقد كان فهمى شهما أيضا ، لا يتردد فى الذهاب سائرا على قدميه الى البندر أو بقاء الليل بطوله ساهرا أو اليوم كله عاملا كادحا اذا أحس أن غيره فى حاجة الى هذا العمل أو الجهد ، خصال جعلت الجميع يدهشون ويفجعون لاقدامه على سرقة العنزة ، وان كان السبب قد عرف والعمل قد اغتفر ، الا انه خرج منها بالاسم لاصقا به ملغيا اسمه الحقيقى وحالا محله .

– أهلا وسهلا .. أية خدمة .

بالطبع فلا بد قد جاءوا ، مثلما كان يجيئ [illegible] فى انتظار



ان يحقق لهم بنفوذه ومركزه المعجزة . كان سهلا تخمين المطلوب هذه المرة ، فلا بد أن فهمى مريض ولابد انهم يريدون ادخاله المستشفى .

وحاول أن يتحدث اليه ويسأله عن مرضه ولكنه ظل متنيا على نفسه فى جلسته لا يرفع رأسه ولا يبدو عليه انه يسمع ما يقال . وتهته ابوه وعمه وهم يعتذرون عن صمته وكيف أنه دائم الحدوث ، بل أحيانا تمضى عليه أيام كثيرة دون أن ينطق فيها بحرف ، ولم يكن المرض فى عقله او نفسه وانما كان فى مثانته ، فهم منهم أنها لابد بلهارسيا أدت الى سرطان فى المثانة ، وأنهم لفوا وتعبوا على جميع (حكما) المركز ومستوصفاته ومستشفياته وحلاقى صحته والعرب الذين يكوون بالنار ، و (يخرمون) بالمسلة حتى قالوا لهم فى مستشفى المحافظة فى النهاية أن لافائدة من العملية وأنه بحاجة الى علاج بالاشعة فى مصر . وادحنا جينالك يابيه ربنا يخلى لك أولادك ويمتعك بالصحة .

ومن غير دعاء ، كان قد قرر أن يتكفل بالامر . ان الدين الذى فى عنقه للكتلة البشرية المنكفئة على نفسها أمامه ملفوفة بالملابس المهرأة ، كبير ، ولقد حان اوان رده وايفائه .

كانت المشكلة أن يتخلص أولا من « الجماعة » التى ترافقه ويستصحبه الى بيته ليقضى فيه الليلة وفى الصباح واعتمادا على صديقه استاذ الاشعة يدخله المستشفى . فقط كان عليه أن يدبر أمر ذهابه الى البيت بطريقة لا تجرح ذكراه فى نفسه من ناحية ولا يظن معها من ناحية اخرى بواب او ساع انه اخ له او قريب ، وكان عليه ان يتغلب على معارضة (عفت)زوجته التى لابد سترفض ايواء شخص مثله ولو ليلة واحدة ولو لكى ينام فى المطبخ أو فى فراش السفرجى .

ولقد تم كل شىء كما قدر له الحديدى ، الا معارضة الزوجة التى بقيت حتى بعد رضائها بوجوده فى البيت وأمرها للسفرجى أن يتكفل به وبحراسته واطعامه . وهكذا لكى يقلل من وقت وجودها بالشقة اقترح ان يذهبا الى المسرح ، وحين عادا فى منتصف الليل كان الهدوء المعتاد يخيم على البيت . وكل

شىء فيه هادىء ، ونور المطبخ مطفأ ، وبعد نصف ساعة كانت عفت تستمتع بمراحل نومها الاولى وكان الحديدى مغمض العينين لاتزال بينه وبين النوم مشكلة مجلس الادارة الذى اجلت حكاية فهمى من اجتماعه ومن المشهد العاصف الذى كان قد أعده لكى يسحب فيه البساط من تحت أقدام المدير العام ويجبره .. اماالظهور بمظهر الغبى الاحمق الجاهل واما ،حفظا لماء الوجه ، الاستقالة .

حين جاءت الصرخة الاولى .

وأعقبتها الثانية والثالثة .

وتكهرب جو البيت تماما ، أيكون قد تورط فى خطأ أكبر دون أن يدرى ، وظن أنه يأوى قطعة حديد خردة عزيزةلتأخذ طريقها فى الصباح الى الورشة فاذا بها قنبلة بدأت تنفجر وتوشك أن تهدم البيت !

وعلى عجل اسرع الى المطبخ حافى القدمين ، كان مظلما لا يزال ولكن رائحة خانقة حامضة قابضة نفاذة واجهته لدى فتح الباب . مد يده يضىء النور ولكن الشلل اصابها قبل ان تصل الى المفتاح . فقد انطلقت من المطبخ الضيق آهة صارخة ثاقبة كعشرات من الابر الحادة المسمومة انطلقت فى كل اتجاه . لايمكن ان يكون هذا صراخ ألم أو للتعبير عن ألم ، ولا مجرد اصوات ، انه شىء مادى ينخر فى الجسد ويصيب السامع بالحمى ، فوق احتمال البشر .

أضاء النور وهو فعلا خائف ، ولم يلمح فهمى فى الحال فقد وجد الفراش الذى منحوه اياه ممزقا مكوما ، والمطبخ بكل ما فيه مبعثرا ومدلوقا والمقشات منتزعا قشها وريشها ومنثورا ، وعددا لايحصى من بقع الدماء الصفراء تصبغ الارض وباب الثلاجة والمناضد البيضاء والرائحة النتنة الخانقة لا تزال هناك لكأنه كان ميدانا لمعركة حامية الوطيس دارت بين انسان أعزل وخصم جبار غير منظور ، لكأن الصرخات كانت صرخات رعب الانسان من عدو خفى يسحقه بالضربات وهو عاجز محاصر متألم مهزوم لا حول له .

ونظرة ثانية القاها على المطبخ بعينى الزوجة هذه المرة .

أدرك بعدها أن فاجعة لم يكن يتوقعها ابدا قد حلت . وبحث
عن فهمي فوجده قد حشر نفسه بين منضدتين من مناضد المطبخ
عاريا تماما ليس عليه الا فانلة مهراة ، راسه يتحرك في كل
اتجاه ، عيونه الميتة المطفأة تقدح بشرر أبيض دائبة الحركة في
محجرها تبحث عن منقذ ومخلص ، وبكيانه كله كان يتجه الى
اعلى في يأس كامل كمن يدرك تماما أن لانجاة . أنه السرطان
المثانة المروع حين يزحف مع الليل حين تبدأ قطرات البـول
تتجمع بحمضها عبر الورم الخبيث الذى نفذ الى كل المسالك ،
ومرور القطرة على الورم المتهتك المجروح ، يسحق بالالم الذى
يصدره كائنا حيا في ضخامة الفيل وبلادة احساسه ويجعلـه
يجثو ويحفر الارض بأظلافه ويملأ الدنيا بهتاف مروع صارخ ..
انه الالم الذى يسمونه فوق احتمال البشر ، فهو لم يخلـق
لبشر ، ولم يخلق البشر وتزود اعصابهم بتلك القدرة الهائلة
الدقيقة على الاحساس كي يسحقها ويكويها ألم كهذا الالم ..

أخرج فهمي من مكانه ولا يزال رأسه وعيناه وكل كيانه في حالة
تلفت مسعور وبحث عن مفر ، مشغول عنه وعن المكان والزمان
والدنيا كلها بما هو حادث فيه وداخله . فيقف ويجثو ويتمدد
على بطنه ويركع ويقوم هالعا واقفا ويفتح فمه اسـتعدادا
للصرخة ، وحتى يكتمها ويحتملها يحشو فمه بذراعه أو بالمخدة
او المقشة ويغرز أسنانه فيها ويسيل الدم من الذراع ومن الفم ،
ومع نقاط البول الكاوى .

وشعر بضغط خانق يكتم انفاسه وبرغبة مجنـونة ان
ينطلق هادرا لاعنا نفسه وبلده وأناسها واليوم الاسود الذى
كتب عليه فيه أن يولد منها ويصبح عليه أن يحيا عمره كلـه
يحمل عن أناسها همهم وفقرهم وعجزهم ومرضـهم وأخيرا
آلامهم وبولهم . ولكن ما الفائدة ومن يتلقى لعناته واحتجاجاته
انه لا يستطيع حتى أن يطلب من فهمي أن يكف عن الصراخ أو
يرغمه على البقاء في ركن بعينه من المطبخ الا اذا كان باستطاعته
أن يأمر الالم الذى في داخله أن يكف والشيطان الذى يمزق
احشاءه أن يهجع .
وسمع خطوات مترددة في الصالة ، ومخافة أن ترى الفاجعة

الحادثة ، اطفأ النور وأسرع عائدا الى حجرة النوم ليجد عفت
في منتصف المسافة .
ـ هيه .. عملت ايه ؟
ـ قلت له يسكت ..
ـ وان ما سكتش ؟ !
ـ حا يسكت ..
آى ياى ياى ياى ياى ياى

وأسرع خلفها الى حجرة النوم التى فرت اليهـا مذعورة ،
وما كادت الصرخة تنتهي حتى وقفت تواجهه وتهيىء نفسهـا
للعاصفة المقبلة الهوجاء . ولكنه اسرع ، واستطاع رغم دفعاتها
وتملصها أن يحتويها بين ذراعيه ، ويقاوم احساسـه بالرغبة
الملحة في الانهيار ويعترف لها بصدق واضح وملموس انه اخطأ
وأنه ما كان يجب ، وأنه يطلب الصفح ، وأن يكون صفحها على
هيئة مساعدته في تدبير الحل للموقف فهما في قلب الازمة معا
ولا سبيل أمامها الا الاحتمال . وما تنزلوش ينام تحت عند
البواب ليه ؟ فضيحه والساعة اتنين . أروح انا عنـد ماما .
دلوقتي ؟! انا ما اقدرش استحمل . عشـان خاطرى . ما
اقدرش . أرجوكي .. غلطة وباعتذر عنها وبارجـوكي انك
تساعديني وتستحملي . استحمل ازاى يارب . اسـتحمل
ازاى .

***

آى آى اى يى يى يا يا ياى

ـ آه يا مامي ما اقدرش على كده ما اقدرش
و و و و و و و ه ييييييه
ـ ايه ده . ده مش بني آدم ، دول عفـاريت ، دول جن .
الحقيني يا ماما انا ح أجنن .
وشيئا فشيئا بدأ الحديدى يحس أن ارتباطه بحجرة النوم
وبالزوجة التي يحتضنها ويسكنها ، بالبيت والحاضر كله تضعف
وبتوتراته تتراخى وبوجدانه يستحيل الى بحيرة هادئة ملساء
على استعداد لاستقبال ادق الرذاذ الصادر عن فهمي .
فرتك مرتك شرتك دى دى دى دان

الالم لابد قد ازداد بدرجة مخيفة ، خفف عنه يارب ٠

واج الواج الواج الواج الواج

والى جوار هذه القادمه من المطبخ ، جاءت أخرى رفيعة طفلية من الحجرة المجاورة ماكادت تسمعها عفت حتى ، بقوة عاتية خارقة خلصت نفسها من تكتيفته وجرت خارجة الى الغرفة الاخرى ٠ ولكن الطفل ، طفلها الوحيد قابلها قادما باكيا مناديا : يا مامى ٠ واحتضنته وحملته ، وبتنمر وتوهج قالت للزوج :

ـ اسمع ٠٠ انت لازم تطرده حالا دلوقتى يروح يشوف له مصيبة يبات فيها ٠٠ دا الولد قايم يرجف ٠٠ يامصيبتى ٠

ـ ياعفت أرجوكى ٠٠ انا شرحت لك الظرف ـ الراجل ده عندى مهم قوى وما أقدرش اطرده ٠

ـ مهم اكتر منى ومن فهمى ده

ـ مش اكتر ، انما مهم ، كفاية تعرفى انى مسمى فهمى ابننا ده على اسمه ٠٠ ده الوحيد اللى خرجت به من طفولتى ٠

ـ يا ح تطرده يا ح أسيب لك البيت وانزل ٠

ـ انتى عايزه منى ايه ٠٠ أركع لك ٠٠ قلت لك أرجوكى ٠٠ انا ح اجيب له دكتور يديله مخدر دلوقتى ويسكته ٠

وانشغل بكليته فى عملية استدعاء طبيب الاسعاف وانتظاره ، ولم يدهش حين أخبره الطبيب ان المخدر فى حالة كتلك ضعيف المفعول لاينجح عادة فى تسكين الالم فآلام هذا النوع من السرطان اقوى من المخدرات وكل المسكنات التى اخترعها الانسان ٠

وكانت الفائدة الاهم للطبيب انه اعطى الزوجة حقنة من عقار منوم ، وبعد مدة قليلة نام فهمى الطفل فى حضن امه ٠

واخيرا اصبح وحده مع الصرخات القادمة من الاعماق وكما قال الطبيب لم يكن المخدر قد احدث تأثيرا يذكر ٠

المشكلة الآن ان يعاد الاتصال ٠٠ ان يعود الى نفس الحالة الوجدانية التى كان عليها قبل ان يصحو الولد وتثور الزوجة ٠ انه يعرفها ويذكرها وهى قريبة دانية منه ولكنها ترف وتذهب ، يتذبذب بينها وبين حالته العادية ، يه يه يه يه يه فمندا مندا هوندا بندا سارادات ٠

واحس براحة باهتة وبالاصوات تصل الى مكان سحيق داخلى فيه وتنعشه فى رقة وعذوبة ، بالضبط هذا هو المكان. هنا يحس بها تتجمع ٠٠ آهاته التى لم يطلقها اى باى يانايابوى ٠

يابوى موجوعة تأتى للحديدى بالضبط على الوجع ٠ يابوى انها ليست من لغة الحياة ولكنها من لغة الاعماق والاى اى ٠ انه يحس بها تعبر عن وجعه هو ٠ منذ سنوات وسنوات وهو يريد ان يقف فى ميدان التحرير ويستجمع شجاعته ، وبكل قوة وبآخر ما يستطيع يطلقها ، عاليه موجوعة صادرة رأسا من الوجع مثلما يفعل فهمى الآن ، ولكنه فى اللحظة الاخيرة يعدل ويضعف ويخاف أن يسخر منه الناس ويتهموه بالجنون فيخمدها ويكبتها ويردها الى حيث ترقد الكثيرات من زميلاتها المكبوتات المحبوسات ٠

آى آى آى فركش أى منكش أى بعقش أى ٠٠

الآن فقط يحس بها كلها ، بآلامه ، ويحس بها ابشع حتى من آلام فهمى وأوجاعه ٠٠ كل الفرق انه ليس له الحق فى التوجع مثله ، لن يصدقه أحد اذا صرخ وترك أعماقه تعبر عن نفسها المكتومة الوارمة المضغوطة ، ألم بلا آهات ٠ أضعاف اضعاف الالم ٠

الآن وهو وحيد مع نفسه وموجوع مثله وأعماقه مفتحة الابواب امامه يستطيع أن يسأل نفسه : ماذا يؤلمه ؟ انه فوق القمة ، كل الخط العريض الذى رسمه لحياته تحقق ، زوج ورب اسرة وسعيد محوط بالرعاية والحب والاحترام انى يكون فمن أين تجيئه الآلام التى لاتطاق حتى انه ليحسد فهمى على حالته ٠

ترى ماذا كان يفعل ويشعر لو حدث له ما حدث لفهمى وبدلا من التعليم المتواصل الذى هيأه له ابوه الصراف الذين كانوا يتندرون عليه ويسألونك وانت ذاهب لتدفع المال : مال الحكومة واللا مال الصراف ، بدلا من هذا اخرجه ابوه من المدرسة واشتغل فلاحا وكان هذا مصيره ٠ أى انسان فى مكانه لابد أن كان يقبل يده ظاهرا وباطنا ، أين هو وأين فهمى؟ هو الذى لا بد تختاره اذا طلب اليك ان تختار مائة يمثلون الصفوة

في هذا البلد ، المتمتع بكامل صحته وحيـــاته ، لا حق من حقوقه مهضوم ولا شعرة ظلم تمسه أو تمس مركزه ، اين هو من انسان كفهمي تكفل الفقر بالقضاء على عقله وأحـــاله الى واحد آخر من ملايين الفلاحين السـذج ، وتكفلت البلهارسـيا بالقضاء على جسده .. فالمفروض انه الآن ميت وعمره مسالة أيام وحياته كانت أبأس حياة وشـــقاؤه كان من نوع يضرب به المثل .. لو كان قد حدث له هذا .. تراه ماذا كان يقول عن « المه » المزعوم وأوجاعه ؟

قال الحديدي لنفسه بلا تردد : كنت أكون اسعد .

كيف ؟ المسألة ليست فقرا وغنى أو تعليمـــا وجهـــلا ، السؤال هو : هل انت حي أم ميت ؟ فهمي رغم كل شيء حي وعاش . اما انا فلم احي ، والحياة أي حياة ، اروع ملايين المرات من الموت ، أي موت حتى لو كان الميت مكفنا في ملابس انيقة محتلا ارقى المناصب سعيدا في حياته الزوجية .

ولكنك حي ، أنا ميت ، . انه ليس تلاعبا بالالفاظ . انها حقيقة . المقياس الوحيد للحياة أن تشعر بها ، وانا لم اشعر ولا اشعر بها ، انني اقضي حياتي كعملية حســابية دقيقـــة هدفها الوصول .. وحين أصل لا أسعد لان أمامي يكون ثمة وصول آخر .

ان فهمي قد عانى من الفقر ، والبؤس ، ولكنه كان يعمل مع الرجال ويضحكون سويا ، ويتشـــاورون في مشاكل العمـــل ويستمتعون بمشوارهم الى الســوق يفرحون لعود الفجل اذا أضيف الى الاكلة ولا احد منهم ياكل بمفرده اذ الطعام ليس ان تجوع وتملأ بطنك . الاكل عنـدهم أن يحل موعـد الطعـــام ويلتفوا حوله في ترحيب . ويتعازموا ويهزروا ويحسوا أنهم يقومون باحتفال انساني صغير ، انهم يفعلون هذا دون ادراك لكنهه ولكنههم به ، بهذه الاشياء الصغيرة الكثيرة المتناثرة في طريق حياتهم يمتلىء كل منهم باحساس يومي متجدد ، انه حي وأن الحياة مهما صعبت حلوة .

انا قضيت حيـــاتي أجري والهث ، لكي اصل الى القمة كما تسمى .. كان علي أن أظل أصعد ولهذا كنت أصادق أو تضمني

المجموعة ، لا لكي استمتع بصداقتي ورفاقيتي لها وانما على اساس سرعتها وعلى اعتبار انها اسرع من المجموعة التي هجرتها، واظل سائرا معهم ماداموا يسيرون بنفس السرعة التي اريدها، حتى اذا أحسست انني بحاجة الى سرعة اكبر هجرتهم الى مجموعة أخرى ، أو سرت بمفردي كي لا يعوقني معوق . وما توقفت مرة كي أواسي متخلفا أو اخذ بيد اعرج معتبرا أن ليس الذنب ذنبي انه تخلف أو أنه خلق اعرج . ولقد ظللت أسرع وأسرع لكي أبدأ الحياة حين أصل ولكن لم يكن للوصول نهاية ، بعد التخرج قلت العمل ، بعد العمل . الدكتوراه ، بعدها الاستاذية، وحين أحسست أنها تستلزم الانتظار هجرتها الى الشركات ، قلت .. بعد الزواج وحين تزوجت قلت .. نبدأ الحياة مع الاولاد وحين خلفت قلت الاوفق حين يكبرون، وهاأنذا لا أزال أجري مسرعا وقـد أصبح هدفي ليس الوصـــول الى أي شيء وانما الاسراع في حد ذاته ، تماما مثل الذي يبدأ حياته بتوفير النقود كي يحسن مركزه المالي ويبدأ يحيا بعد الالف الاولى ، وحين يصل الى الأولى يصبح هدفه الثانية فالثالثة ، الى أن ينسى الهدف تماما ويتحول الى بخيل مقتر هدفه جمع المال ليس الا .

ياني ياني ياني يا بوى .

أحس بتوجع فهمي يريحه راحة بدأت تصبح عظمى ، وكأن فهمي يتوجع لكليهما أو اكثر من هذا ، كأنه هو الذي أتيح له أخيرا أن يتوجع كما يريد وبكل قدرة استطاعته ، انه الالم المتراكم عبر الســنين .. الم الحزن الدفين والاكتئاب . ان الانسان جهز بتركيبه وأحاسيسه لحياة خاصة تسمى الحياة الجديرة بالانسان ، وهو لا يستطيع ان يخرج عليها ويحيا حياة من صنعه هو ومن ابتكاره الا وهو يتألم وآلامه تتضاعف ، ولقد قسا العمر كله على طبيعته وكتم نداءات الاعماق المطالبة بمتع الحياة الصغيرة الكثيرة العادية التي تعطيها طعم الحياة . قساعليها ليجبرها أن تحيا بمفردها .

أبوا .. اموا .. أبوا .. اموا .. أبو .. واه ..

بالضبط يا فهمي ، الوحــدة للوصول ، الوحدة للسرعة ، الالم البشع لفراق الناس والبعد عنهم .. الوحدة القاتلة التي [illegible]

تربى الخوف من الآخرين وتدمر الثقة بالنفس ، الوحدة لكى تكون حرا اكثر ومنطلقا أكثر وحيا آكثر فاذا بهـا تؤدى الى التقوقع والرعب من الآخرين وتحديد الحركة واحاطتها بعشرات القيود ، همه يحمله وحده ، ومرضـه ينفرد به ، وضيقه هو المسئول الوحيـد عنه ، الالم ، اضعـاف اضعـاف الالم الذى يسحق فهمى ويدمره وهو مرغم على كتمانه يخاف خوف الموت أن يطلع عليه أحدا فان تالم الرجل أو حاجته للفضفضة الى الاخرين ضعف وعورة .

دى دى دى دى دى دى ..

ياللمضحك .. انه يحس انه ربما لأول مرة يذكـرها فى حياته .. سعيد ، سعيد الى درجة لا يصدقها العقل ولا يصدقها هو نفســه ، انه حقيقة متأثر لأوجاع فهمى ولكن فرحته هـو لهذه اللحظة التى يحيـاها ، أجل ربما أول لحظـة يحيـاها . لاتوصف . ومن الصعب أن يدرك الأسباب ولكن لابد أن أهمها أنه أخيرا أسـتطاع بوسـيلة معقدة مركبـة تعتمد على أعماق تخاطب أعماقا خلال لغة غير مفهومة ، أخيرا استطاع أن يتصل، وان يشارك ، وأن يزاول عملا من أعمال الاحياء ، يزاوله بمتعة وسعادة ، سعادة تدخله فى حالة وجدانية لهاصفاء لحظة الكشف لدى المتصـوفين وعمق لحظـة الخلـق لدى العبـاقرة ، لحظـة ها هو يحس فيها أنه قادر على الاتصال بكل انسان وبكل شىء ، بل قادرا على الاتصال بنفسه والتحديق مليا فى أعماقه دون أن يرده الرعب المقيم مما قد يراه .

وكلما اندمج فى حالته الوجدانية تلك ، أحس بنفسه تتفتح أكثر وتعمق ، وتتقوى صلته بفهمى حتى لكانه يقرأ ما يجار به فى كتاب مفتوح ، وأحس أيضا انه ينجذب الى مكانه ليصـبح أقرب ، انجذابا مريحا ممتعا الى درجة لم يدرك معها أنه كان قد غادر الفراش ومضى يعبر الصالة فى عدد كبير من محطات المشى الضيقة . كل خطوة بمحطة ، سـمع ، كالصـوت البعيد يأتى للنائم نافذة جار تفتح ويعقبها صوت زعيق وما لا بد انه كلمات سباب ، سمعها وكأنها لاتمت اليه ولا تهمه ، انه يرى حياته الآن بكل كبيرة وصغيرة حدثت فيها ولها مجسـدة مجموعة

أمامه ، بحيث بنظرة واحدة يستطيع أن يرى نفسه تقريبا من يوم ميلاده الى يومه هذا ..

الغريب انه ينظر اليها وكأنها حياة غريبة عنه ، لا تربطه بها أو بصاحبها أدنى علاقة ، لا تربطه ذكرى بأى جزء فيها أو موقعة واغلب الظن أنه لا يذكرها ، انه لا يكره شيئا فى الدنيا قدر كراهيته لحياته تلك انه يمقتها ، ولولا النداء القوى الصادر له من فهمى لحملها فى التو وقضى عليها وعلى نفسـه ، ولكن النداء أقوى ، انه يتسرب الى كيانه كله ويهز هيكل الحياة فيه ويوقظ حبـه الغريزى لها ، ومن الظـلام الكثير الرابض يملأ الصورة ، تبدأ تتسرب موجات كاشفة مضيئة ، يجسر معها على التحديق والرؤية ليتابع نفسه وهو يجرى ويجرى ، وحده ، الناس تحيا وهو يجرى ، والشاشة مليئة بالصلات المقطوعة ، بالصداقات المبتورة ، بأجزاء العلاقات ، بقيم على الطريق مهدرة بانسان لا يريد ان يرتبط بأحد حتى لا يعطله الارتباط ولا أن ينتمى لجماعة أو حتى لصديق لان فى الانتماء فقدانا لذاته الحرة وكيانه ، والنتيجة جرى سريع الى قمة الوصول هو فى الحقيقة هرب سريع من الحياة ، فالحياة هى الاحياء ولا حياة لى أو لأحد الا بالأحيـاء وأن تنفصل عن الأحيـاء معناه انفصال عن منبع الحياة الاصيل . وفقدان طعمها ونوعيتها والتحول الى الموت .

الخطأ الفادح الذى يدركه الآن ، وعلى الضوء الباهر الصادر من أعماق فهمى الى أعماقه يراه ، أن الوصول لاقيمة له بالمرة اذا وصلت وحدك ، أية قيمة أن تصبح ملكا متوجا أو عالما حاصلا على جائزة نوبل ، وأنت محاط بصحراء جرداء ، أية قيمة لأى شىء فى الدنيا ، للمتعة نفسها أن تحس بها وحدك ؟

وصحيح أنه ليس وحده فهناك زوجته وابنـــه وأقرباؤه ، وأخوته ، وبعض الاصدقاء ، ولكنها ديكورات علاقات ليس الا .. ان حب النـاس للناس وارتبـاط الناس بالناس لاينشأ للزينة وانما ينشأ لحاجة الناس للناس ، الحاجة الماسة الملحة كحاجتك الى الماء والهواء والتى بدونها لاتستطيع أن تعيش ، وهو له أخوة وزوجة وأناس ولكنهم لا يمثلون مطلبا حيويا بالنسبة اليه ، ان فى استطاعته ، اذا أراد ان يحيا كما تعود

بدونهم ، قد يكونون هم فى حاجة اليه ٠٠ ولكنه هو ليس فى حاجة لأحد ، أو بالاصح هو فى حاجة حيوية ماسة ، ولكنه يحس ويوهم نفسه مثلما أوهمها طول عمره أنه ليس بحاجة اليهم ٠٠ ومن هنا ينشأ ألمه البشع ٠٠ من هنا بدأ ، ويستشرى السرطان الذى يقتل الضحكة على فمه لانه يحس أنه ليس بحاجة الى الضحك ، ويجمد العواطف فى صدره لأنه يحس انه ليس بحاجة الى أن يعطى الحب أو يستقبله ، من هنا تبدأ المأساة التى أحالته الى ميت حى ٠

●●●

وجاءته صرخات فهمى ، قريبة هذه المرة ، اذ كان قد وصل الى المطبخ ، وجلس بجواره ، جاءته بعد سكوت خيل اليه أنه طويل ، وكأن مجرد احساس فهمى بوجوده بجواره خفف عنه الالم ٠٠ جاءته الصرخات ، أقرب ما تكون الى البكاء ، وأحس بنفسه وكأن بركانا باكيا يوشك أن ينفجر ، انه لم يبك فى حياته منذ أن كان طفلا وهاهو يحس انه يود لو يظل يبكى الى أن توافيه المنية ، اشفاقا على نفسه وهو أول من إدرك انها أكثر أهل الأرض جميعا حاجة الى الشفقة ٠٠٠

هات يدك يا فهمى ، ضعها هنا على صدرى ، انه خاو كما ترى ٠ أنا أعرف أنك مريض ، وأحس بك وأريد أن أقاسمك الالم ، ولكن لاأستطيع فقلبى من خشب ، تركتكم جميعا ، أنت فى زينين ، وسعد فى بنها وعبد المحسن فى أسيوط ، وشلة الجامعة ، وجمعية الكتاب ، وكل الناس ، وظننت أنكم تسيرون فى الطريق العادى ، طريق الندامة ٠٠ وان الطريق الأسرع ، طريق السلامة ، هو الطريق ٠٠ والنتيجة أنى مت من زمن ، وظللتم انتم أحياء ، أنا جثة أقنع نفسى أننى أنا الذى أزور عن الناس ، فى حين أنهم هم الذين يزورون عنى ، وما حاجتهم الى جثة ، حتى زوجتى وابنى أحس انهما لا يطيقان رائحتى ٠٠ أنا أريد العودة يا فهمى ، أريد البداية من جديد ، اطلب فرصة اخرى فمن يقبلنى يا فهمى ؟ من يقبل جثة ، من يرضى بى ، انى لا أجد فى هذه اللحظة سواك يافهمى ، هل تقبلنى ٠٠ هل تقبلنى يافهمى !!

— ما تعيطش يا محمود ٠٠

ولم يصبه الذهول مع أن القائل كان فهمى ، وكانت أول كلمات ينطقها ، ولم يعجب أيضا لانه ناداه بمحمود ، وكأنما ذكره الاسم بالنختة المشتركة وبايام زمان ، كل ما احس به ان رجاءه قد تحقق ، وأنه يقول :

— أشكرك يا فهمى ٠٠ أشكرك ٠٠

وانبطح الحديدى بجامته على بلاط المطبخ ، وتناول يد فهمى يقبلها ، ويمسح بها دموعه السائله التى لا تتوقف وهو يردد ٠ سامحنى يا فهمى ٠٠ سامحونى ياناس ٠٠ أنا غلطت وتعبت والالم فاض بى ٠٠٠ سامحنى يا فهمى ٠

ولكن فهمى كان قد عاد ، بآخر وأقوى ماعنده ، يصرخ وآلامه قد اشتدت بغتة ٠٠ وكانت نوافذ البيت جميعها قد فتحت من زمن وسكانها يصيحون رغم أنوفهم للآهات المستغيثة ٠٠ ويستجيرون من الصوت الذى لا يرحم أبوابهم ونوافذهم مهما أغلقوها وأحكموا الاغلاق ، الصوت الذى أيقظ العمارة ببوابيها وبهواتها وسادتها وداداتها ، وبدأ يصل الى العمارات المجاورة ويوقظ سكانها ، ولو استمرت الصرخات لربع كانت قد أيقظت الحى الراقى باكمله ، ومن يدرى ربما المدينة كلها كانت قد صحت ٠٠٠ ولكنهم كانوا قدطلبوا بوليس النجدة ٠٠ وحضر وفتحت له الزوجة نصف نائمة ، غير انها استيقظت تماما حين قادتهم الى المطبخ ، ووجدت الحديدى راكعا على الارض يقبل يد فهمى ويستغفره ٠٠

ورفعوا فهمى ، والبسوه ، وحاول جنديان حمله فيما بينهما ولكن الحديدى نهرهما ، وتقدم هو من فهمى وحمله على كتفه ، والمرض قد التهم لحمه ولم تبق له سوى العظام ، وتشبثت عفت بزوجها سائلة اياه عما يفعله بنفسه ، والى أين هو ذاهب؟ وابتسم لها ، وأضاء وجهه كما لم تتعود بالابتسامة وقال : رايح فى طريق تانى صعب شديد ٠٠٠ تيجى معايا ؟!

— أنا مارحش وياك بالشكل ده ٠٠ انت اجننت ؟

وأحاطت فهمى الصغير بيديها بينما استدار الحديدى بحمله



الصارخ المولول ، ومضى يتقدم الموكب ، ونظرات السكان وأهل الحى تتبعه وتحيط بهوتهمس وتسرى بينها الهمسات الضاحكة .. لقد عاش فى الحى سنتين مرعوبا أن يكتشف حد اصله وفصله ، وتبدوللأعين النائمة شعرة واحدة تكشف عن الجذور والسيقان التى يمت اليها .. ولا ريب أن كثيرين من سكان الحى كانوا يفعلون مثله ، فها هو يرى النوافذ والمدخل حافلة بكثير من الجثث .. وهو الآن يستعجل اللحظات التى يغادر فيها الحى .. وقد اصبحت الرائحة لا تطاق .

دخل القادم الجديد مذهولا ، كان المكان وكانما تحس انك سقطت اليه من عل أو وصـــــلته عن طريق سرداب طويل مزعج ، ولكنه كان فاخرا بالغ الفخامة ، اللون الغالب فيـــه هو الاسود ، سواد .. كسواد الكاديلاك .. يوحى بالاناقة والعراقة ، وكان النور غير ثابت المصدر ، ومضطرب الاتجـاه .. وتحس وكانما توجهه يد خفية الى النـاحية أو النـــاس الذين ينظر اليهم فقط ، كان غموض مرح يسيطر على جـو الحفل ، والحضور تدرك بطريقة ما أنهم كثيرون ولكن عدد من يقع بصرك عليهم قليلون تستطيع التفرس فيهم بسهولة .. ودخان السجائر والسيجار يلون الجو ببقع سماوية متحـــركة ويتشابك مع اشعاعات النور غير المرئى صانعا سحبا كسحب الصيف ، بيضاء ، والحفل صاخب الى حد ما ، ولكنه صخب وقور .. كأنه احتفال بخطبة شاب من أعرق عائلات الصعيد .. أو بتكريم خاص لوزير مهم ، وعـــلى الوجـوه نوع من الاستمتاع القلق الذى ينتاب هذا النوع من صفوة الناس كلما أتيحت لهم متعة ، مخافة أن يضيع [illegible] من أوقات

الكسب ، وخدم ، وكانهم استحضروا خصيصا للمناسبة باكثر من زى ، لكونهم درجات ، والسيدات فى فساتين السهرة .. ولكنها ليست جديدة تماما كانما لم تستعمل من أعوام ، واستخرجت للمناسبة من الدواليب ، غالية ، تبدو عليها آثار العز ، بعضها مطرز بلآلىء وان كانت صغيرة .. لكنها حقيقية .. والوجوه ، وجوه الرجال ، مكتنزة قليلا ولكنها شاحبة ، كالمجهدة . والسيدات عيونهن .. رغم تعدد ألوانها تبدو كلها سوداء عميقة الغور وكأن صاحباتها يعانين من جوع جنسى لا يدركنه ، والمقاعد قليلة متناثرة ، أقل بكثير من عدد الحاضرين ، ولكنها راسخة فى أماكنها وكانما مضت عليها أحقاب .. وقماشها من القطيفة الحمراء الغامقة التى تبدو حمرتها مع سواد البدل ورماديتها مع الفساتين الفاتحة ... والسقف الاخضر بانعكاسات الضوء ، وسحابات الدخان المتعددة الدرجات ، والعبير الصادر عن (برفانات) حديثة وان كانت تعطى رائحة كرائحة عطر الجدات العربى القديم ، والضجة المكتومة الصادرة عن لا مصدر والتى تتيح لكل انسان أن يتحدث مع أى انسان دون أن يثير الانتباه أو يتسرب من حديثهما الكلام ، كل هذا جعل القادم الجديد يحملق ويتردد ويضطرب كثيرا قبل أن يستطيع أن يتبين أين يكون موقفه . كان واضحا انه لا يمت الى المكان أو الحاضرين ، وكانما دخله بطريق الخطأ ، ولكن من ملامحه وتصميمه كان يبدو أن له الحق فى الحضور ، وأنه يملك ، ربما فى جيبه هذا الحق .. وانه على استعداد لأن يظهره ويتحدى به كل من يجرؤ على سؤاله أو التصدى له . ولم يكن أحد قد لاحظ دخوله ، أو اكترث .. مما أتاح له أن يتدبر موقفه وأن يتأمل الجميع أو بدقة أكثر من استطاعت عيناه أن تقع عليه من الجميع ، تأملا كان يدفعه الى مزيد من القلق .. وشيئا فشيئا يخلخل ثقته بنفسه ، أين يقف ؟ تلك كانت مشكلة ، وهل يؤثر الوحدة أم لابد له أن يشتبك مع الآخرين فى حديث ؟ مشكلة ثانية .. ومع من يتحدث اذا أراد ؟ وفى أى موضوع ؟ وبأى حق ؟ مشكلة ثالثة ورابعة وخامسة ..

أم تراه قد أخطأ المكان وتكون الكارثة ؟ ..

ودهش فعلا حين وجد ، دونا عن الحاضرين ، شخصا يقترب منه .. كان جليا أنه ليس من الخدم فلم يكن يرتدى مثلهم . ولا من الحضور .. فهم منصرفون الى أنفسهم متكبرون .. لا يمكن أن يفكر اى منهم فى مباداته بالحديث ، ولامر ما كان فى مشية الرجل وطريقة اقترابه وابتسامته المتشح بها ما يذكر بالادلاء الذين يتهافتون حول الفنادق لارشاد السياح .. حتى سترته التى يرتديها بدت أكمامها ومقدمتها كأنهما أكمام ومقدمة جلاليب الادلاء البلدية .. وما أن اقترب من القادم بدرجة كافية حتى اكتشف أنه يحمل أمامه وكانما بحزام صندوقا كالصناديق التى يحملها باعة السجائر ولكنه أصغر كثيرا ولم يكن بحزام ، وأنيق جدا ، جدرانه واركانه مطعمة ومشغولة بأسلاك معدنية ثمينة .. وحين وصله وسع ابتسامته بطريقة بدت وقحة الادب وقال بصوت فيه بعض التحدى وبعض الاغراء :

— تضرب يا بيه ؟

واضطرب القادم بانفعال مفاجىء . كان قد بدأ يدرك أن الرجل يحمل لعبة من نوع ما ، وأنه ليس الوحيد فهناك أكثر من واحد غيره يطوف بأرجاء المكان ، بل هناك أكثر من لعبة يزاولها بعض الحاضرين فى أطراف المكان الذى بدأ يصبح أكثر اتساعا ، وكانه ناد ، وكأن الاحتفال مهرجان ما ، أو (تمبولا) والرجل لايزال واقفا أمامه يبتسم .. نفس الابتسامة المؤدبة الوقاحة ، ويعرض عليه مرة أخرى باغراء أكثر : تضرب يابيه ؟

وحتى دون أن يسأل أظهر له يده اليمنى فاذا فيها مسدس من نوع غريب أسود لامع السواد بطريقة ملفتة للنظر ومحيرة ، جديد وكأنه لم يستعمل قط ، وحتى دون أن يشير أدرك القادم أن الصندوق الانيق ملىء بطلقات مرصوصة بنظام رائع ومقلوبة بحيث أن قواعدها الى أعلى .. أما الشىء غير العادى فهو انه فى الصف الاخير الايسر توجد رصاصة ليست مثل غيرها من الطلقات .. فقاعدتها ليست برونزية اللون وربما المادة كالاخريات .. ولكنها وكانها مصنوعة من فضة مشعة أو لابد من معدن ثمين بريقه يخطف البصر ، بحيث اذا نظرت الى الرصاصات المقلوبة فى الصندوق لا تستوقف هذه الطلقة بالذات [illegible] فقط ،

ولكنها تستولى عليك تماما وتكاد تعجز أن تحول البصر عنها ، تضرب يابيه ؟ مرة ثالثة قالها الرجل . وبالضبط لم يستطع القادم أن يحدد ان كان حقيقة قد قالها فى المرتين الاخيرتين ام أنه نفس النداء المغرى يتردد صداه فى عقله لثانى ولثالث مرة . بالكاد استطاع أن يسترد بصره المثبت على قاعدة الطلقة النادرة ليعود يعى بالرجل واللعبة . وحتى دون شرح فهم أن عليه أن يتناول من الصندوق طلقة ويضعها فى المسدس ، ثم يذهب الى مكان فى الركن مخصص للاطلاق حيث يوجد هناك حاجز تماما

كما يوجد فى لعبة التنشين بمدينة الملاهى ، كل الفرق انه لاتوجد عدة اهداف ، انما هدف واحد ، لم يستطع من موقفه أن يتبينه فاذا أسقطه يفوز بالجائزة ، وأيضا لم يكن يدرى ما هى الجائزة ولكنه كان متأكدا انها أعظم جائزة نالها أو ممكن أن ينالها فى حياته ، وبدا كل شىء يسيرا ، والجائزة ، اعظم جائزة قاب قوسين أو أدنى .. وما عليه فقط الا أن يستعمل هذه الطلقة المشعة المتلألئة ، حركة من يد الرجل أوقفته ، يده اليسرى الخالية من المسدس . أشار لهبها مطالبا بثمن الاشتراك فى اللعبة موضحا باصابعه القيمة ، وأخرج القادم من جيب بنطلونه جنيهين حسبما حدد . وضعهما فى يده .

وكان مفروضا حينئذ أن يعطيه المسدس ويتناول الطلقة الفريدة ويعمر ، ويذهب الى الركن . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . فجأة بدا كل شىء بعيد الوقوع ، المسدس فى يد الرجل وفى متناول يده . والطلقة فى مكانها من الصندوق تزغلل عينه . ولكن هناك مماطله ومراوغة ، ربما من أجل ألا يستعمل هذه الطلقة بذاتها ، ربما للتسويف فى التنفيذ .. ربما لأن هناك أشياء كثيرة لابد أن تستوفى والوقت يمتد دون

أى داع للامتداد . والموقف لا يتحرك أو يتحرك منزلقا متراجعا .. وابتسامة الرجل تصبح أكثر وقاحة وأقل أدبا ، وقلة اكتراث الحاضرين وانصرافهم الى أنفسهم تزداد بشكل يجعل من موقفهم ذلك عاملا ايجابيا يتدخل ويساعد الرجل فى مماطلته ، ويحول بينه وبين أن ينال حقه وقد دفع قيمة الاشتراك ، وغيظا فغيظا بدأ يحس احساسا يتعمق ويتدلك كالمسمار المدبب الطويل

فى نفسه . انه ضحية خداع لا يستطيع وضع يده عليه أو ضبطه ، وانه مسلوب الحق ، وان أحدا ، وبالذات هذا الرجل الواقف أمامه بدأ يتراجع منصرفا ويحاول الاندساس بين الحضور ، يريد سلبه حقه والضحك عليه .. وكل من فى المكان وما فى المكان يساعده . فالحضور بدأوا يتكاثرون ، والخدم اشتدت حركتهم ، والضجة علت قليلا .. وثمة مؤامرة خفية تدور بين الجميع .. مؤامرة صامتة غامضة تلتف خيوطها خفية تحت ستار الضجة المكتومة وبين ثنايا السحب المدخنة المضيئة ، وحتى من بين أنسجة البدل الغامقة والفساتين الفاتحة والقطيفة الحمراء . وصرخ فى الرجل مهددا . وتوقع أن ينتاب الجميع نوبة ذهول لصراخه ، ولكن وكأنه لم يصدر صوتا ما انتبه أحد .. وزعق مرة أخرى ولم يسمع سوى ماكان يسمعه من ضجة الحفل الصاخب المكتوم .. وأصبح الغيظ يخنقه وصغرت الدنيا فى عينه وهانت ولم تعد قوة فى الكون تستطيع أن تحول بينه وبين أن يأخذ حقه ويضرب الطلقة ، تلك الطلقة بالذات ، وبيده اليمنى ودون وعى انقض على الرجل وأمسكه من مقدمة سترته ولم يأبه الرجل ولا الحاضرون لهذا العمل . وكان يخيل اليه أنه عمل يعد جريمة لا تغتفر فى نظر المجتمع المحيط به ، وبيده ممسكة الرجل من تلابيبه حدق فى وجهه ، كانت نفس الابتسامة وقد أصبحت الوقاحة فيها هى الغالبة ، تطل من وجهه الاسمر المستطيل ، ويستطيل لها شاربه الاسود ، وتجعل أسنانه البيضاء الحادة تطل من فمه المنفرج .. وفى الحال ، وبيده الاخرى صفعه على وجهه صفعة قوية أعجب شىء أن لم يصدر عنها صوت وكأنما هى صفعة معنوية وليست مادية حقيقية ضربها بنفسه وهوى بها بجماع يده على الصدغ المستطيل الاسمر . وانقلب الغيظ الى غضب ، ولكنه غضب لم يصبه بالعمى ، كان يرى ، لم يفقد أبدا قدرته على الرؤية وادرك أن الصفع لم يعد يجدى ، وأن الوقاحة المطلة من ابتسامة الرجل فى حاجة الى نوع من الضرب أكثر اهانة ، وبكل ما يملك من قوة وبساقه اليمنى ركله فى بطنه ، وكان متأكدا أنه هذه المرة سينفطر ألما ، فقد كانت الضربة من القوة بحيث لو أصابت الحائط [illegible] نفسه . الضارب ، قد شعر وكان قدمه قد [illegible]

وكان أمله أن ينظر الى الرجل بعدها فيجده يتألم ، يكفيه .. حتى استردادا لكل حقه أن يراه ولو لومضة خاطفة يتألم .. ولكن وجهه .. وجه الرجل .. حين رآه كان لايزال يبتسم . كل ماقى الامر أن الادب ذهب تماما من ابتسامته ولم تعد هناك سوى الوقاحة ، وقاحة مستهزئة مستصغرة وكأنه ينظر الى طفل .. وكاد يجن ، فهو مدرك أن الرجل حى من دم ولحم وأعصاب وانه حتما قد تألم ، فكيف استطاع أن يكبت هذا الالم كله وألا يبدو على وجهه خلجة واحدة أو لمحة اهتزاز تدل على معاناة ، أو تدل على تغيير ولو طفيف فى تعبيره المبتسم الوقح ، وانهال عليه ضربا .. وقد انقلب الغضب الى خنق مجنون لم يعد يرى معه كيف ولا أين يضرب . ولكنه كان على يقين تام انه بجماع قوته وارادته يضرب وباستماتة يفعل ، وانه يضرب هذا الرجل بالذات ولا يريد ولا يمكن أن يتوقف عن ضربه حتى لو اراد ، فمن هناك من اغوار سحيقة جدا فى كيانه كانت تتدفق حمم من الحقد المغلى الملتهب وتنفجر معبرة عن نفسها المخيفة من خلال أيديه وأرجله وأسنانه .. فبأسنانه كان يعض وكأنه انقلب الى وحش ، وبكعب حذائه يدك وبقبضتيه يضمهما معا ويرفعهما عاليا ويهوى بهما دفعة واحدة كالمعول الهائل محطما ومدمرا ، وكلما أحس بالوهن يزحف الى ارادة الضرب فيه كان يكفى أن يتذكر أنه خدع وضحك عليه ومنع منعا من مزاولة حقه لتعود اليه كل قواه وبكل قواه يعود يحقد ويضرب ويضرب .

وحين تعب تماما ولم يعد يقوى على مجرد رفع اليد أو تحريك القدم ، حين أحس انه كله قد تداعى وتهدم ، وكأنه المضروب ، وأنه بالكاد يلتقط النفس ، وأنه يلهث ، بل لم يعد يقوى على أن يلهث .. بحيث بارادته لم يعد يتنفس وانما صدره بآخر قوى الحياة فيه ، ومن تلقاء نفسه وبغريزة المحافظة على الذات كصدر فقط يشهق كف ، وسكت ، سكن سكونا تاما وكأنه فى طريقه لاستقبال الموت . وأول بوادر قدرة على الحركة ارتدت اليه فتح بها عينيه . والمذهل أن الرجل كان لايزال هناك واقفا فى تراخ وهدوء أمامه والصندوق يحمله والمسدس نصف مختف

فى يده ، والطلقة ذات القاعدة النادرة المعدن الخاطفة للبصر لاتزال فى مكانها من صفوف الطلقات ، وابتسامته هذه المرة وقد عاد الادب يختلط بالوقاحة فيها تحتل مكانها من وجهه ، وأيضا لايزال له موقف الدليل العارض لخدماته ، وصاحب اللعبة الذى يروج لها ويغرى الآخرين باللعب ، ولم يعد أمام القادم وقد استنفد كل وسائل القوة الا أن يلجأ الى التأنيب واللوم وأودع نظرته كل ما يريد واذا بالرجل يجيب وكأنه يقول : « أنا مش قلت لك عايز يابيه تضرب ؟ » ..

وأجال القادم رأسه بضعف فى الحاضرين ، وكأنما أدرك متأخرا جدا أنهم جزء من اللعبة بينما الرجل يقول : وآدى انت ضربتنى ، أجل حقيقة كان يريد أن يضرب ، ولكنه كان يريد أن يضرب الطلقة لا أن يضرب الرجل .

ـ ما هى دى اللعبة ..

قالها الرجل وقد ازداد الوقح فى ابتسامته ..

أيضحك ؟





انه يريد مرة اخرى أن يسمع ، ويرهف السمع ، فما يدور مهم ، أهم شيء في حياته يدور ، وراديو الجيران ٠٠ الحائط فى الحائط ، صوته عال كأنه يؤذن ، ومن بعيد يأتى صراخ الاطفال الذين لا يزالون يقظى ٠ الدبة وقعت فى البير وصاحبها راجل خنزير ٠ هل وقعت حقيقة ؟ وهل هى مستكنة الآن فى البئر ؟ وهل صاحبها خنزير سمين ملظلظ كأبى السباع اسماعيل ؟ انه يريد أن يسمع ويرهف السمع ، فهى ، امه ترقد الآن فوقه تماما ، أو لابد كذلك ، فالمرتبة تنبعج من بين الواح (الملة) الخشبية ، ولكن انبعاجها شديد ، وأمه خفيفة ٠٠ فلماذا الانبعاج الشديد ٠٠ كان هذا زمان ، حين لم يكن يسمع سوى الهمس ، العشاء ٠٠ وابتسامتها السعيدة تغرقهم والطبطبة

الحنون ، ثم صوتها المتثائب قوموا يا أولاد ناموا ٠٠ الدنيا اتأخرت ، وكالدجاج المطيع ، تدخلهم ٠ ترفع داير السرير الابيض وتدخلهم تحته ، فالبيت حجرة واحدة ، ومكانه المفضل بجوار الحائط فى الصيف ، فالحائط بارد يلصق نفسه به ويلمس عليه بساقه العارية فيستمتع وكأنه بجرش قطعة ثلج ، ويمضى الصيف ويأتى الشتاء ، ويغير مكانه الى الحافة ، وطوال العام

هناك النقرة التى لم يسمعها بوضوح ابدا ٠ لانه حين يصحو على وقعها الخافت ، تكون قد كفت ، وتكون القهوة قد شطبت ونورها الكهربائى الوهاج قد انطفأ وأظلم الشارع تماما ، والباب يزيق قليلا كلما فتح ، وحين يفتح يسمع الهمس ، الهمس والظلام ، لا شيء سوى الظلام التام ، ونقر كنقط الماء المتساقطة من السقف بعد انتهاء المطر ، همس ٠ همسة أو همستان كحفيف قميص نومها أو لعله حفيف القميص يبدو كالهمس ثم يسود السكون ٠٠٠ وتصعد أمه فوق الفراش ، فهى وحدها تنام فوق السرير ، والسرير واسع يكفيهم جميعا ، ولكنها تصر ، من زمن من أيام أبيه حتى ، ان يناموا جميعا أسفل السرير ، حتى حين كبروا وبدءوا التململ والشكوى وقالوا ان رءوسهم تخبط فى (الملة) رفعت أرجل السرير فوق قواعد وأحضرت نجارا خصيصا ليطيل من قوائم الملة حتى ليصبح ماتحت السرير وكأنه حجرة ضيقة حقيقية يلذ له فيها وهو الطفل ، والاطفال مغرمون بالعشش والمخابىء وأمكنة الاستخفاء ، اللعب والرقاد وكثيرا ماشكلها بخياله وتصورها خيمة أعرابى فى الصحراء ، أو خندقا فى باطن الارض أو مقام شيخ من أصحاب الكرامات ٠٠ وبرغم هذا كله كان دائما ينقصه شيء ، فكم من مرة اشتاقت نفسه أن ينام فى حضنها ، وأن تضمه مثلما كانت تفعل وأن تسمح له مرة ان ينام معها هناك حيث المرتبة اللينة والملاءة النظيفة ٠٠ وفى الليل فى عز الليل كان أحيانا يدعى المرض ٠ وبصوت مسموع يتأوه ، ولا من احد يسمع فاذا سمعت أو ضاقت بآهاته سألته بصوت غير عال ولكنه مملوء بالوعيد والتأنيب ٠٠ مالك يابراهيم ، فلا يجرؤ حتى على أن يواصل الادعاء ، ويخرس تماما وكأنما تأوهه كان مجرد التماس على استعداد لسحبه فورا واستنكاره لحظة أن يلمح أن التماسه لم يلق الترحيب ٠ الظلام والحفيف والهمس ، ثم الارق الذى ينتاب أمه على أثرها ، وكأنما سببه هذا النفس الغريب الذى يحس به قد ملأ الحجرة من لحظة أن فتح الباب ، أرق لا تستقر معه على قرار فتظل تتقلب وتتحول ، حتى أن لوحا من (الملة) سقط على ساق اخته ياسمين ذات ليلة وجرحها وصرخت ، وصرخ هو الآخر ، وحين لم تستجب أمه فى الحال أصيب

بالذعر فظل يصرخ الى ان نام مضروبا ٠ لابد أنه لم يكن ارقا ، لابد انه كان شيئا آخر ، منذ متى بدأ يعى هذا الشيء الآخر ، بالتأكيد ليست الليلة هى المرة الاولى ، أول مرة وعى كانت ليلة العيد ، كانت قد أخرجتهم من الحجرة لتستحم وحين دخلوا عليها بعد هذا ، وشعرها مبتل وهى تنفضه لتجففه ، وقميصها النظيف مفتوح ٠٠ وصدرها — لاول مرة فى حياته يدرك ان لامه صدرا ، فلقد رآه ورأى نظرتها واحس فى التو وكان شيئا فى نظرتها يحف به نفس الحفيف المريب ، وكأنما الدنيا تظلم والهمس يعود صادرا من عينيها ملحا ومشيرا الى صدرها ٠ ووجد نفسه لا يجرؤ على الاستمرار وانطلق يجرى الى الخارج والاولاد حيث الدبة التى وقعت فى البير ، ولعب ولعب ولعب حتى امتلأت عيونه بالتراب وامتلأت رأسه بالتعب وداخ وعاد ٠٠ ودق الباب ودق ولم يفتح له أحد ٠٠ وجاء الصوت ٠ صوت أمه ، الملىء بالوعيد ، مادام اتأخرت ، نام ع العتبة ٠٠ نام على العتبة فعلا وكأنه كان ينتظر الامر بفارغ الصبر ، ولكنه حين استيقظ فى الصباح وجد نفسه مكانه تحت السرير ، وكانت هى ٠٠ أمه الى جواره ٠٠ نائمة بجواره ، وحين رأته يستيقظ احتضنته وقبلته وقالت له كل سنة وانت طيب يابرهيم ، واستكان لحضنها وهو أسعد اهل الدنيا ، كل ما كان يضايقه هو رائحة صابون الاستحمام التى كان يشمها ، صادرة عنها ، مقترنة لا يدرى لم باحساس مخجل محرم ، وكاد ان يبدأ يتقلب فى حضنها ويتدلل عليها ، ويمسك يدها ويلفها حول رقبته ثم يلعب فى أصابعها السمراء من الخارج القمحية من الداخل ، ويقبل كفها ثم يقبل كل أصبع من أصابعها على حدة ، من عمر طويل لم يفعل هذا ، فمن عمر طويل لم ينم بجوارها ، ولكنه ما أن بدأ يتمرغ فى حضنها حتى أحس بصدرها يضغط بشدة على ظهره ، ليس ضغطا شديدا وانما ضغط الكتلة من اللحم الحى ، وصدرها الحى مع رائحة الصابون وعرقها الخاص والهمس فى الظلام ، وجد نفسه يغتاظ الى درجة البكاء وتسقط دموعه فى صمت على يدها الملتفة حوله فتسحبها كالملسوعة وحين تدرك أنه حقيقة يبكى تضمه الى صدرها بشدة أكثر ٠ وكلما اشتدت فى ضمها وضغطها أحس [illegible]

منها ويجرى هاربا الى الأولاد والدبة وصاحبها الخنزير ٠٠ ولكنه حين يدرك أن الليل ذهب ، وأن هناك صباحا واليوم يوم العيد ، حيث يعيد كل الاولاد ، ويأخذون العيديه ويفرحون ، بكى ولم يسكت الا أثر هزة شديدةوصرخة منها : مالك ياوله ؟ ماله ، حقيقة ماله ، ماذا حدث ؟ لاشىء حدث ، لاشىء يبكيه ، فلماذا هو حزين ؟ ، لماذا هو حزين ؟ أمن جلسة أبى السباع اسماعيل التى أصبحت تطول ، والقرش الذى يعطيه أياه كل مرة ويرسله ليشترى لنفسه كراملة حتى ولو لم يكن يريد يصر على ارساله ، وهو خائف ان يخرج ويترك أمه بمفردها معه ، فاذا تلكأ ، جاءه الصوت الآمر منها : اسمع كلام عمك اسماعيل يابرهم ٠٠ وينظر برهم فى عينيه وكأنما ليطمئن قبل مغادرة الحجرة ، ولا يستطيع أن ينظر فيهما أكثر من ومضة ، لا لخوفه منه ومن جسده الهائل الضخم ويده السميكة فى سمك مخدة أخيه الصغير ، فقد كان يكرهه ، ولكن لان فى عينيه نفسها شيئا متحركا غير ثابت ، نظرة خائنة لا تستقر ٠٠ تختلط الخيانة فيها بالسخرية ، سخرية جافة خشنة كظهر الليفة ، يقشعر لها جسده ، وتدميه ٠٠ سخرية بلا خفة دم ، سخرية السمين التخين الذى يتجشأ عقب كل مرة يناوله فيها كوب الماء ليشرب ، ثم يكمل الحديث بصوته الخشن الرنان ، وآه لو مال على أذن أمه وهمس ، همس متحشرج ٠٠ كهمس الزوران يحس برهم أنه يخرج من فمه وينتشر كالدخان القابض الخفى من حجرتهم وفى حياتهم يملؤها باثر جارح غير مريح باعث على الخجل ، ولماذا عمه أبو السباع اسماعيل بالذات ، ألأنه يزورهم ٠٠ هناك عشرات الرجال يأتون وعشرات يسلمون على أمه ويحيونها ويهمسون لها وأحيانا يعطيه أحدهم قرشا ، انما لماذا هذا الرجل بالذات ؟ وأمه تضحك مع الكل وتجالس الكل ٠٠ فقط مع أبى السباع اسماعيل يحس كأن التيار الخفى الذى يربطه بها باستمرار حتى لو غابت أوسافرت أو نامت فاتصاله بها دائما قائم وموجود ، حين تجلس أو تحدث أبا السباع ، يحس فجأة وكأن التيار قد انقطع ولم تعد تشعر به ، ولكن شعوره هو بها يزداد الى حد الجنون ٠٠ الى حد انه يمنع نفسه منعا من أن يمسك بعصا أبيه ويدفعها لتستقر فى

عينيها أو فجأة يخلع كل ملابسه ويقف أمامها عاريا تماما لتدرك انه موجود ، والحياه كانت سهلة وعذبة ولذيذة يحب كل ما فيها ، يحب اجتماعهم حول الطعام بعد الجوع الشديد حيث يجلس فرحا بالطعام وباجتماعهم هو وامه واخته وأخيه الصغير ذى الأربعة أعوام الذى لا يزال يتهته ليخرج الكلام ، وتعلق أمه بهم جميعا وبه على وجه خاص ٠٠ والشاى بالحليب فى الصباح ، وفسحة الحص والعصارى مع الترمس على البحر ، والجلسة على الحشيش فى قلب المنتزه ٠٠ ما أجملها حتى لو جاءت سيرة أبيه ٠٠ حين يتولى أمه وجوم يخاف معه أن تبكى ٠٠ ويتبارى الحاضرون فى تعداد صفاته ٠٠ حتى لكأنهم يتحدثون عن شيخ من أولياء الله ٠٠ وفى الحديث عن قوته ، وكأنه كان عنتر بن شداد ٠٠ والمرض اللعين الذى فتك به فى أسبوع ٠٠ ويقولون مات ٠٠

أجل ٠٠ شيئا فشيئا بدأت الكلمة التى كان يأخذها على غير محمل محدد يتكون لها فى ذهنه معنى ، مات ، أغلق عينيه الى الابد ، واصفر وجهه وبرد ٠٠ ولفوه فى كفن ٠٠ ودفنوه ٠٠ لقد رأى هذا كله ولكن لم يبدأ يفهم معناه ٠٠ مثله مثل الهمس فى الظلام والحفيف ، وقولهم البركة فى برهم ، الا هناك حيث وقعت الدبة فى البير ، أشياء كانت مغطاة بطريقة لا يفهم لها معنى ، ثم بدأ يسقط عنها الغطاء ويصبح لها ان لم يكن معنى واضح فلا أقل من شىء خفى عميق مظلم كفوهة البئر الذى سقطت فيه دبة ذلك الخنزير ٠٠ حتى غناء الاولاد والبنات كان فى تلك الليلة بلا معنى ، هكذا أحس ، رغم ما كانوا هم فيه من متعة كبيرة ، كان هو وحده يحس أن الاغنية بل حتى اللعب كله أصبح بلا معنى ، شده صاحب ورشة الدوكو الذى يعمل عنده من أذنه ولعن أباه :

- ياد انت كبرت وبلغت ومابقيتش عيل ٠٠ مانتاش عاجبنى كده طول النهار موطى لى فى الارض كده ، ايه اللى كاسرعينك ياد ٠٠ أوع يكون تشومبه بيعلم عليك ٠٠

وفهم جيدا ما يريد أن يقوله الاسطى ٠٠ وأحس بلسعة نار تكويه وتجنه ٠

- ما تقولشى كده تانى يا اسطى ٠٠

لم يدر كيف جرؤ وقالها ..

وصحيح ان وجهه قد تورم من الضرب بعدها باعتبار أنه رد على الاسطى الكبير وتلك جريمة لا تغتفر .. الا انه فوجىء بنفس الاسطى بعدما شبع من صفعه وركله يقول لاصحابه الذين يشربون الشيشة :

– انما ايه رأيكم عجبنى .. رد على صحيح انما عجبنى .. والنبى الواد ده ح يطلع أجدع من تشومبه ..

وتشومبه المأخوذ من تشومبى هو الصبى الاول للاسطى ومساعده ، أكبر من براهيم فى السن وأغمق فى السمرة .. أكرت الشعر مفرطح الانف غليظ الصوت على عكس أخيه (لممبا) .. فتشومبه لاهم له طول اليوم الا تعذيبه وصفعه وقوله .

– ابقى سلم على أمك ياد ..

أول مرة قالها ، صفعه . فضربه تشومبه علقة لاينساها ، ان أول عمل بالتأكيد سيفعله حين يكبر أن يقتل تشومبه .. ويقتل أول دبة يلقاها ، والدبة بدت سخيفة جدا وهو يرددها مع الاولاد .. ولم يعد فى ترديدها ما يثير ، وأصبح انحناؤه ليدخل تحت السرير أشد .. وكالكبار لم يعد ينام لحظة أن يضع رأسه على المخدة الطويلة التى بططت وجفت حتى أصبحت كلوح الخشب .. والهمس أصبح يفرقه عن الحفيف .. والدق لم يعد يستيقظ عليه ، انما قبله ، من الاقدام الثقيلة وهى تزحف فى الطرق المظلمة كان يتنبه ويعرف ان القهوة أغلقت وانها أقدام اسماعيل أبو السباع .. ولم يكن وحده الذى يتنبه ، فالسرير يزيق ، وتنسل ساقا امه وتشخشخ غوايشها ، ثم الحفيف ، وفتحة الباب والهمسة الناعمة الصادرة عنها : مساء الخير ، حتى هى التى تبدأ بالتحية ، والحشرجة التى مهما بولغ فى جعلها همسة تظل دائما حشرجة بغير معنى ، ثم ، ثم تلتهب عيناه ، وكأنما تضيئان بعد هذا كل شىء مظلم فى الحجرة ، حتى وجهه الاسمر الذى تفردت ملامحه وتضخمت ، يضىء ، كل شىء يبدو واضحا من نور النهار ، حتى قدماها العاريتان يراهما ويرى أصابع احداهما وهى تنكمش وتتفرطح تحت ثقلها وهى تصعد ثم تنسحب الى فوق ، تاركة اياه يحيطه من كل جانب

(داير) السرير ، كأنما ليطل عليه فى عالمه الصغير ويسخر منه .. وياسمين نائمة متقوقعة على نفسها ، فى بله (تريل) .. واخوه الصغير ممدد بالعرض عند أقدامها يتنفس بصوت مسموع وكأنه رجل يغط .. هم فى البير والملائكة فى السماء .. والسماء سقفها من خشب ، تطل منه مرتبة تنبعج ، وما تحت السرير يغوص .. كل دقيقة يغوص ، والسماء الخشبية مهددة بالسقوط وقيام القيامة والجنة والنار ، ورأسه يوم القيامة منكس .. وحين يأتى تشومبه لصفعه على قفاه سيرعد الصوت العالى المدوى صوت الله : ارفع ايدك ، وتنشل اليد ، أليس باستطاعة القيامة أن تقوم الآن ؟ ويرعد ذلك الصوت المدوى : ارفع ايدك .. فيصاب الخنزير بالشلل ، وينحشر صوت أمه فى صدرها الى الابد ، ويكف تماما عن أن يتحول الى همس ، الى ذلك الهمس الذى كان يحس أنها به تصبح غريبة عليه تماما ، امرأة أخرى ، ملامحها مختلفة ، لا يعرفها ولم يرها فى حياته .. امرأة يخجل منها ، وكلما رأى همسها يخرج مريبا منخفضا شعر وكأنها تخرج من جسدها سرا دفينا كان خافيا عليه ، سرا كالعورة لابد له من غطاء ، وكلما خفضته كان يتعرى أكثر حتى لا يكفى كل ما لديهم من أغطية وبطاطين لستر همسها .. اسمع .. أهذا صوت المرأة التى ولدته ، أمه ، بالضبط انه يتذكر ، أجل .. كيف فاته أن يتذكر هذا أيام كان فى سن ياسمين وربما أصغر ، وصحا وفتح فمه يريد أن يصرخ ولكنه سمع كلاما أسكته .. فقد ميز صوت أبيه فى الحال .. وكان أبوه يهمس ، كان مع أمه فوق السماء الخشبية ، وانتهى همسهما الى ضحك ، ضحك طويل لا ينتهى ، دفعه لان يبتسم وقد بدأ يحس أنه سعيد لمجرد احساسه أن أبويه يضحكان ، نسى تماما أن البول يؤلمه وأنه من لحظات كان يريد أن يصرخ .. ودوت خبطة أعقبها عراك ضاحك فوق السرير .. اهتز بعنف له .. ثم صرخة مكتومة ، ثم عود الى عراك انتظر له نهاية بلا جدوى .. واستغرب أن يكون أبوه المهاب المقدس الذى يحبه الى حد لا يستطيع معه مفارقته ، طرفا فى اللعبة ، ولأمر ما استشاط غضبا حين أحس أن الطرف [illegible] يريد البكاء غير أن البكاء بدا له سخفا [illegible]

واحدة ، فرغم استنكاره كان احساسه الاكبر الطاغى أنه
فى أمان حنون حبيب ٠٠ وأنه معهما ، وكأنه الطرف الثالث فى
اللعبة ، كل الناقص أن يشعرهما بوجوده ، وبكى ليشعرهما ،
ولدهشته تصاعدت الضحكات من فوق لبكائه ، من أمه وأبيه
معا ، ضحكات لا رهبة فيها ولا قداسة ، جعلته يستمر فى البكاء
بدافع العناد وحده ، ولكنه حين وجد الضحك مستمرا وجد
نفسه هو الآخر يبدأ فجأة يضحك ، فاذا بالضحك الاعلى يتحول
الى قهقهات ٠٠ اهتز لها السرير بشدة ٠٠ نفس السرير الذى
ترقد عليه أمه الآن ضعيفة ٠٠ مختلفة تماما عن قوتها الصارمة
فى النهار وملامحها الجادة ، وحديثها المملوء بالوعيد ٠٠ ضعيفة
تتألم ٠٠ وتتألم فى ضعف مقيت وكأنها بتألمها تطلب مزيدا من
الضعف وتغرى الخنزير بمزيد من الوحشية اذ كان قد تحول
الى وحش ، وحشرجة همساته أصبحت خورا عميقا كخوار ثور
مذبوح ، انه لم يعد صغيرا ٠ فهو يعرف ٠ لا يعرف بالضبط
فهو ليس كبيرا تماما ، ولكن هناك أشياء غريبة لا يستطيع حتى
لو أراد أن يتصورها تدور فوق رأسه فى السماء عند فوهة
البئر ٠ ان باستطاعته أن يصنعهما معا ويخرج بصورة كاملة
ولكنه يبقيها لارادته ، منفردة مجرد أصوات لا رابط بينها ،
مجرد ضعف ووحشية ٠٠٠ وهمس فى ناحية
وتهديد بسقوط (الملة) فى ناحية أخرى ومع هذا
تفور دماؤه ، مثلما كل مرة تفور ٠٠ والعرق الغزير يكسوه .
وكأنما حتى لو أردنا لا نستطيع أن نوقف أجزاء فى عقولنا عن
أن تعمل وتربط وتعى ، ورعب شديد ،وكأنما من فوقه
شيطانان يجهران بالعصيان ويفعلان هذا فى المساء أمام كل
الناس ودون اكتراث لاحد ، دون خوف ، خواره كخوار واحد
من أكلة لحوم البشر ، ولو نطق لنهش لحمه قبل عظامه ، أمه
نمرة على فمها دم انتهت لتوها من التهام أخيه الصغير وتتنمر فى
طلب المزيد ٠٠ والتوحش مجنون مكشوف حاد الانياب
كعراك الكلاب المسعورة ، وثقلهما شديد ، و (الملة) تغوص
تحت الثقل وتجثم فوق صدره ، وهما عليها وكذلك الارض
والسماء ٠٠ وكل أثقال الدنيا ، وجميعها تدكه ، فى ضغطات

بطيئة ، تدفع ببطء وتهوى ببطء تدكه وتمنعه أن يتنفس ٠٠
انه لا يستطيع الاحتمال ، انه سيموت لا من الضغط وانما من
الجنون ٠٠ أن مخه يتكهرب ويسخن ويبرد ويطلق شرارات ٠٠
والرعب من الفجر يشل صوته عن أن يصرخ ، ويمسك بزمام
عقله عن أن يفقد السيطرة ، وينفض هذا كله عن نفسه وينفجر
غاضبا صارخا ٠٠ وينقض عليهما بالحذاء البنى القديم يمزقهما ٠٠ او
بيد (الهون) يدشدش رأسيهما ٠٠ ولكنه يدرك ، ومهما بلغت
درجات انفعاله ٠٠ انه غير قادر على الاتيان بشىء من هذا ، كبرت
وبلغت يابرهم حتى أصبحت كالدبة ، وأذنك تسمع ، وعيناك
كالاسياخ المحمية تخترق (الملة) وتكاد ترى ما فوقها ٠ وأنت صغير
لم تكن تعرف ، كنت فقط ترى ، الآن ترى وتعرف ٠٠ لو فقط
أمكن الغاء كل ما فات والبداية من جديد ، من الليلة مثلا ، أو
من الغد وكأنه ما سمع قبلا أو رأى ، وكأنه أول مرة يعرف
ويفاجأ بالمعرفة ليستطيع أن يتصرف بمثل ما تمليه عليه المفاجأة
٠٠ ولكن العجز الذى يصيبه يعرف سببه ٠٠ العجز سببه انها
ليست المرة الاولى ٠٠ وقبل أن تكون الاولى كان هناك احساس ٠
كان غموض وكان تدريج ، الهمس يتحول بعد حين فى وعيه الى
كلام مفهوم ، والكلام الى أصوات ، والاصوات يميزها ويعرف
صوتها من صوته ، ومع كل (حيل) طول يطلع له فى فخذه ،
كان يكتشف شيئا فشيئا ، ذاك الغموض ٠٠ وببطء شديد
لا مجال معه للثورة ، ولا فرصة للمواجهة ، بحيث حين (عرف)
و (وعى) لم يعرف أو يع بشىء جديد ٠٠ وانما جاء كالخبر
القديم بلا حرارة ، كالشبح البعيد الذى خمنت من زمن قبل
أن تقف وجهك فى وجهه ٠٠ من يكون ٠

حتى اشعارهما بوجوده ما كان يجرؤ عليه ، فقد كان يشعر
أباه وأمه لانه كان مطمئنا آمنا ، أما هذان فمن يكونان غريبين
عليه تماما ، الرجل خنزير والمرأة دبة ٠٠ وهما على سطح الدنيا
فى السماء ، وهو وأخوته مثلهم مثل أبيه يضمهم هذا القبر
ذو الداير الابيض ٠٠ أيبكى ؟ ويصبح حتى فى نظر نفسه
وكأنه (ملعبة) تشوميه كما يقول الاسطى ؟ أيصرخ ويلم
الناس ٠٠ باستطاعته أن يفعل باستطاعته أن يقتلها حتى بعد

ما يذهب الرجل الغريب .. ولكن المشـــكلة أنه بهذه الفعلة سـيفقد ذلك الخيط الواهى الذى أصبح يربطه بامه .. فرغم كل شيء لا تزال امه .. ولا يزال حيا لان له اما .. ولايستطيع أن يتصور الحياة بغيرها .. بده أن يتصور أنه هو الذى قتلها وافقدها الحياة .. هو حى لان له أما ، ولانها هذه الأم بالذات ذلك الشيء الموجودرغم وهنه لو فقده لفقدالحياة .. فهى الآن وهى مع الرجل الغريب مقطوعة الصلة به ، يحس احســاسا عميقا شاملا انه ضـــائع الى حد المـوت ، لا أحـــد فى الدنيا يخصـــه ولا يخص هو أحـدا ، مايبقيــه حيا هو أمله ، مجرد أمله ، أن تنتهى تلك اللحظـةالعارضـة ليعود يربطه بها ذلك الخيط الواهى ، ولـــو صرخ ، ولـــو عرفت أنه عرف لنبذته الى الآبد ، وكف التيار النابع منها ليحييه عن السريان ، وانتهت أمه تماما ، ولم يعد فيها غير المرأةالاخرى التى ترتدى الفستان الاسود فوق القميص الحريرى الشفاف والتى تشقى طول اليوم كى تجلب من عملها كدلالة وسمسارة ، وأشياء أخرى كثيرة ، الطعام .. بل انه ما كان يفرح بالطعام لأنه طعام ولكن لانها هى جالبتـــه .. هى التى تعبت وأحضرته ، وتعبها هـــذا فى احضاره لابد سببه أنها لا تزال تحبهم وتحبه .. الطعام رمز الحب هـــو ماكان يفرحـــه . وأن تموت .. أن تنفضـــح . ان يواجهها لمات قبل أن يحدث هذا فحاجته اليها أقوى ألف مرة من حاجتها اليهم ، بل هو لا يعتقد منذ أن دخل هذا الرجل الغريب حياتهم أنها أصبحت بالمرة فى حاجة اليهم .. حياته وحياتهم لا تزال معلقة بأمومتها لا تنفصل . لهذا لابد أن تظل تعيش وتظل حية ، ويظل ساكنا ، وتظل ، لتظل حيةفى السماء .. أوفوق الفراش ، لتظل تقابل عشرات الرجال وتشتغل معهم بأكل العيش وتعولهم وتحدثه بصـــوت ملء حتى بالوعيد .. لتظل تختار من بين الرجال ذلك الرجل الغريب لتقول له ، وهى التى تبدؤه بصوت هامس مبحوح : ساالخير ، وليسمع هـــو ، وليكن عليه أن يقضى جزءا كبيرا من الليل يســـمع ، والاصوات تأتيه من فوق سمائه الخشبية ، ليس فيها ضحك او سعادة ، وانما فيها ضعف ، حتى لو أدى الى رغبة فى الضعف أكثر فهو حزين ، وليس فيها صوت أبيه القريب الحنون وانما لهاث خنزير ، وفحيح دبة سقطت فى البئر الذى كان يخصه

وحده وخلق له وضحك ذات يوم حين احتله ابوه ، حضن عن عمد تفتحه وبارادة منها تضم به ذلك الرجل المكتنز وبلقائهما الشيطانى المتوحش يغوص كونه الصغير تحت السرير ويغوص، وهو قد كبر ، ومنصغره وهو يسمع ... الآن أصبح يسمع ويجن ، وبحكمة كبيرة يصنع فى النهاية كما تعود ان يصنع ، ويسكت .. ومع هذا لا تريد القيامة أن تقوم .. ليعلو ذلك الصوت الراعد : ارفع ايدك ، فيصاب الخنزير الغريب بالشلل، وتموت المراة المبحوحة الهمس .. وتعود له الأم . صرخة تتصاعد من تحت سماء خشبية محدودة الى المدينـــة النائمـــة والارض الكبيرة والكون والسماء التى لا نهاية لها .. ولان القيامة لا تقوم فهو يستيقظ كل صباح وقد أصيب بخيبة الامل .. وكل يوم يرمقها فى خروجه ويحس أن الخيط يدق ، والام تنكمش وسنوات قد مضت على موت أبيه .. والمرأة ذات الهمس تطغى، فيذهب الى الورشة منكس الرأس ليرتفع كف تشومبه ويهوى بها على قفاه ، قفا صبى صغير أسمر ، قائلا :

— والله كبرت وبغلت وبقيت زى الدبة .. والدبة وقعت فى البير ..

مارس ١٩٦٥




Looloo
www.dvd4arab.com

المهم ليس انه كان جريا ، المهم انه كان فى أكثر من اتجاه . يكاد يكون فى كل اتجاه ، لكأنه يوم الجرى الاكبر ، نوع غريب خاص من الجرى فهو ليس جرى الخائف أو المستعجل أو من يسرع لانقاذ ، جرى تائه وكان صاحبه يجرى ويسرع ليبحث عن بقعة يبدأ منها الجرى والاسراع ولهذا فلا أحد يعرف هدف الآخر أو غايته ، انما الكل فى حالة ترقب خائف أن يعثر أيهم على بدايته التى ربما حددت لهم البداية . ولهذا ، أيضا كنت ترى الشخص يجرى كالمجنون ، وكالمجنون أيضا يحاول عبثا أن يراقب خطو الآخرين وجريهم ، بحيث ما أن يبدو أحدهم يتردد فتقل سرعته أو ينطلق أكثر فتزداد سرعته ويبدو انه قارب العثور على غايته حتى يندفع العشرات الى حيث يكون على أمل أن يصل الواحد منهم أولا .. ليكون أول من ينطلق حتى يتحدد الهدف ، وحين يصابون بخيبة الامل ويجدون أن الذى أسرعوا اليه أكثر منهم حيرة يندفعون الى متلكىء أو مسرع آخر ، عملية كانت البقعة فيها تبدو اذا نظرت اليها من عل أو من بعيد وكأنما تنبض ، نبضات تجمع مفاجىء يعقبه التفرق ، نبض يحدث فى أكثر من مكان

في نفس الوقت حتى ليبدو الميدان وكأنما فرش بقشرة لولا تلك النبضات العشوائيه الحادثه هنا وهناك والداله وحدها على الحياة لظننتها قشرة صخر أو لظننت الادميين المتجمعين كتل ركام مختلف الالوان .

ولا أحد يعرف ان كان هناك ضرب أم لا ، أنا شخصيا أصبت بأكثر من ضربة ، ضربة قاصمة موجعة ، وكان من المستحيل تحديد الضارب ، فانت بلا جار دائم .. والحركة الدائبة الجاريه لاتتيح لك حتى مجرد التطلع الى العشرات والمئات الذين تمر بهم أو يمرون بك انما بالتأكيد كان هناك ضرب ، وكانت هناك اصطدامات ، لا وقت حتى للاعتذار عنها ، وكان أناس يسقطون، فجأة تتصاعد صرخة يعقبها انين ، يظل يخفت كرنين الجرس المعلق حتى تمحوه صرخة أخرى ، ولا أحد يتوقف ليرى النهاية مادمت لست أنا الصارخ ولا أزال قويا سليما لم أسقط بعد ، فما معنى الوقوف ، وشيئا فشيئا بدأت أدرك أن الحركة كلها ليست تلقائية وأن هناك حركة أخرى خفية من الصعب شبه المستحيل ادراكها ، حركة طاردة الى الخارج ، وكان الميدان يتمدد وينفجر انفجارا بطيئا خفيا منتظما طاردا الوسطانيين ليصبحوا أقرب الى المحيط والى الخارج والى الشوارع الكثيرة الصابة في الميدان والآخذة منه ، حركة لولاها ماكان باستطاعة قوة في الوجود أن تنتشلني من حيث كنت الى حيث وجدت مجموعة من الناس كنت أجدها تجرى بلا سبب آخر سوى الاستمرار اللاارادي لما كنا نفعله في الميدان الكبير ، استمرار لانستطيع حتى ولو أردنا ايقافه . وماخفي كان أعظم ومن أين لي أن أدرك اني في اللحظة التالية سالتفت الى جارى ، أول جار أستطيع أن ألمحه وأحدق في ملامحه فأجده لدهشتي الشديدة ولهولي ، عبده . وكان احساسي الطاغي التالي أن النقود معه وانه لابد يخفيها في مكان ما معه ، وكدت أموت فرحا وأنا ، بشغف عمره وكأنما ألف عام ، وبغيظ كالغاز الخانق القاتل الذي يتشبع به الجسد ولا نحس به الا هناك قبل الموت بلحظة ، حين تعي لأول ولآخر مرة أنه خنقك وقتلك . أجل الغيظ أبشع أنواع الغيظ حين تستأمن أو تثق ثم ترى الخديعة عيني عينك ودون أي اكتراث ، حين ينسل الشخص الذي تعرف ومتأكد تماما انه في يدك

متى أردته واني أردته في يدك ، فجأة تجده أمامك يذوب ويختفي وتلتهب غيظا وغضبا ومجهودا ولاتستطيع منعه . عبده ، بيدي الاثنتين أطبقت على رقبته . كل خوفي ان يذوب مرة أخرى ، ويختفي .. وكل ضيقي اني لااستطيع التهامه .. الوحش فينا لايزال هناك ، وحين نتشاجر لانعض كي نؤلم الخصم انما نعضه لأننا فعلا نريد ، كالاجداد الوحوش ، التهامه ، الاجداد الذين كانوا يهاجمون الخصم ويلتهمونه غيظا كي يستطيعوا اخفاءه واخفاء وجوده داخل وجودهم وبناء حياتهم على أساس ان تطعم خلاياهم على خلايا العدو وتستمد بناءها ، نحن الآدميين الذين فقط نعض عن عجز ونحقد ولانستطيع التنفيس عن حقدنا بالطريقة الطبيعية فيرتد حقدنا كالانياب المسمومة الى داخلنا ينهشنا نحن ويقوضنا وبالضبط هذا ماكنت أحسه وأنا أطبق على عبده وأتمنى لو كان باستطاعة عواطفي أن تنطلق فتنهشه وتدشدشه وتمضغه وأحس بأنيابي تلوك لحمه وأجزاءه وتشفي غليلها وتطحنه بكل ماتملك من قسوة وشراهة ، وربما الاصل في الطعام أن يأكله الانسان بناء على غيظ وبنية اخفائه عن الوجود واحتوائه تماما والقضاء عليه ولهذا يستفيد الوحش من طعامه الفائدة القصوى بينما يمرض الانسان الآن بطعامه ويشقى .

ولكن ، حتى كطعام ، كان عبده لايدفع الا للاشمئزاز وقتل الرغبة فقد كان نحيفا غلبانا ، ماحفلت عيناه مرة بنظرة تحد ولا واجه أحدا مرة بنية اثبات الوجود أو الدفاع عنه ، كان طيبا ذلك النوع الباهت السلبي من الطيبة ، مصابا بفتق مزدوج، ويغني ، في خلوته ، مواويل عذبة ، وكأنه اني يحل غريب لم يعثر له أبدا على وطن ، واذا فاض به الحال بكى ، امتلأت عيناه فجأة بدموع لايصاحبها أي احمرار انما يتجمع الاحمرار في أنفه فيبدو وكأنما تورم وحفل بالافراز ، ويصعب عليك ليس فقط لانه عبده وانما لانه وهو الرجل ، كالاطفال والنساء يبكي ، بكاء لاليونة أو طفولة فيه ولا يستدر العطف ، انما الكارثة انه بكاء رجال يستدر الاشمئزاز . حرامي قروش لايأخذها الا مضطرا ، وبأقل مقدار ، واذا ضبطته ارتبك وتلعثم وأقسم ايمانات كاذبة وحذار أن تشدد عليه والا بكى وأصابك باشمئزاز يستمر معك اليوم كله وربما لبضعة أيام . ثلاثة أيام بأكملها بلياليها

وبساعاتها الطويلة ومغاربها وعصاريها وأنا ابحث عنك ياعبده أرفع أرصفة مصر وأقلبها ، وأقتحم البيوت ، وأوصى ، وأواعد ، واستنجير ولا اترك شارعا او زقاقا او حارة ، وحين يهدني التعب أنام وأستيقظ على روحى تكاد تطلع بالغيظ والحنق يأسا من العثور عليك وحلمى وكابوسى وألم يقظتى ومنامى ان ألتفت مرة لأجدك ياعبده ،أين كنت ياعبده وأين أخفيت النقود . والغريب المذهل ماقاله . قال انه ما أن غادر المنزل يومها حتى أمسكته فرقة من التى تبحث عن المرضى لتاخذهم عنوه الى المستشفيات (تماما كفرق الشفخانات التى تأخذ الحيوانات المريضة بالقوة !) وانهم اخذوه معهم الى المستشفى مشتبهين فى امره ، وهنـــاك كشف عليه الباشحكيم بنفســه وقرر انه مريض بمرض خطر يهدد أن يعدى المصريين جميعا به وأن لاعلاج له الا بعملية جراحية يجرونهـــا له فى الحال ويقطعون بها الاورطى له ، وفعلا عملوا له العملية ، وقطعوا له الاورطى ورقد لثلاثة أيام ثم أخرجـوه اليوم فقط بعدما منحوه عكازا ليستعين به فى السير ، أما النقود فمن لحظة أن دخل المستشفى وهو لايدرى ماحل بها .

وكان مفروضـــا أن يحكى عبده قصـــة مايبرر بها اختفاءه واختفاء النقود ، أما أن يحكى قصة كهذه لايصدقها طفـل أو معتوه ، أما أن تكون هناك فرق تبحث عن الآدميين المشتبه فى مرضهم وتأخذهم بالقوة كي يعالجوا وتعاملهم هـــذه المعاملة الحيوانية البشعة ، اما أن يكون هناك مرض من الامراض علاجه قطع الاورطى ، اما أن يقطـع الاورطى وهو الشريان الرئيسى للجسم البشرى الذى يأخذ الدم من القلب ويوزعه على جميـع انحاء الجسد والذى فى سمك العصا التخينة بحيث انه لو خدش يحدث من جرائه نزيف يقضى على صـــاحبه فى الحال ، فما بالك أن يقطـــع وأن يعيش عبـده بعد قطعه ، ليس هـــذا فقط بل وأن يكون باستطاعته أن يسير ، ولو على عكاز ، وأكثر من هذا يجرى مثلما كنا منذ دقائق نجرى اما أن يكذب عبده هكذا على كذبا واضحا صفيقا لايحاول حتى أن يداريه أو يبحث عن قصة أخرى أكثر حبكة وقابلية للتصديق فهو ماأضاع منى كل سعادتى بالعثور عليه وما جعلنى أحس بتعب ساحق أهوج يعترينى لاحساسى انه يسخر منى بقصته تلك سخرية تفوق الوصف ، غضب لاحدود لقسوته ولاحدود لما يدفعك اليه ، ولم

أكن وحدى ، كانت الجماعة التى تجرى معى تشهد هـــذا كله وتسمعه وقد آب جريها الى سير بطىء ، بل بدا أفراد آخرون ينضمون الينا ويشعرون تجاه عبده وقصته بنفس ماأشـــعر ، وكلنا بلا استثناء قد أصبح اهم شىء لدينا ان النقود معه وانه لابد يخفيها فى مكان ما من جسده ، فعبده لايملك مكانا آخر فى الدنيا يستطيع أن يخفى فيه شيئا وليس مهما القصـــة ، اى قصة يحكيها ، انما المهم هو العثور على النقود ، والعثور عليها امامه « عينى عينك » وفضحه فضيحة علنية امام الناس كلهم وعلى مرأى ومسمع من الجميع ، وهكذا تصـــاعدت الاصوات تصرخ .. فتشه .. فتشه .. ولم أكن فى حاجـة للصرخات لامد يدى انزع عنه جلبابه البلدى الباهت الذى لايملك سـواه غير انى فوجئت ان الجلباب ملتصق بجسده لايمكن خلعه عنه ، وهذا غريب فعبده كان دائما (يلق) فى جلبابه الواسع فكيف به الآن لايمكن انتزاعه وكـأنه انتفخ فجـــأة أو ســـمن فى ثلاثة أيام سمنة غير معقولة . وفى البحث عن حـــل لخلع الجلباب عنه اشترك الجميع فى الاقتراحات وقد أصبح حماسهم للنيل من عبده يطغى على حماسى انا الضحيه ، حمـاس كان يعمنا فى صمت وبلا اتفاق سافر وبكل جهد واصرار وبأعصاب منفعلة وبكثير من الاستمتاع وكأنما نحن متأكدون تماما اننـا أخيرا قد عثرنا على بغيتنا ، على نقطة كالتى كنا نجرى فى الميدان نبحث عنها لنبدأ منها الجرى .. على مذنب ، يحمل الذنب الذى ارتكبه معه ، ولا بد أن ينال جزاءه ونمتع كل ما فينا من خير بايقاع القصاص به وتطبيق العدالة ونمتع كل مافينـا من شر يجعلنا نطبق العدالة بأيدينا وبأنفسنا وبالشر حرا طليقا لديه جواز المرور نوالى احداث الضرر تحت شعار العقاب .

ولم تكن هناك طريقة لخلع الجلباب عنه الا بسلخه كمايسلخ جلد الارنب عنه ولكى نســـلخ الجلباب لابد أن يكون معلقا ، وأصبحت المشكلة اين وكيف نعلقه ، وتصاعد اقتراح ، والتفتنا فوجدنا الجزار قريبا ، وتحركت المجموعة وعبده فى وسطها ، لاتزال يدى مستميتة عليه الى حيث دكان الجزار وتولى أربعة رفع عبده بينما أخذ الجزار الشاب البديل على عاتقه مهمة تعليقه فى الخطاف الذى تعلق عليه الذبائح من (قبة) مصيرية وملابسة

الداخلية · وهكذا علق عبده فى الخطاف وأصبح مرتفعا هناك ، لاحول له ولا قوة مثله مثل الذبائح والخرفان المسلوخه المعلقه على بقية الخطاطيف · وامتدت أكثر من يد ترفع ذيل الجلباب الى أعلى وتسلخه عنه وهو معلق صامت لاينطق بحرف · وما كاد الجلباب يخلع عنه حتى أدركنا السبب الذى جعله يلتصق بجسده هذا الالتصاق الشديد ، فحول بطنه وصدره كانت تلتف أشرطة بيضاء كثيرة · وكانه فعلاقد أجرى عملية وتلك أربطتها ، ولكنى أدركت على الفور هدفه الخبيث من هذه الاربطة الكثيرة فلابد انه اكثر منها ليستطيع اخفاء النقود فى اية طية من طياتها دون أن يستطيع أحد الشك أو التنبؤ بمكانها · وكان لابداولا ، ولمجرد الروتين ، فحص محفظته ، ومد الجزار يده السمينة المدربة ، وأزاح طيات الشريط قليلا ، وأخرج المحفظة من جيب صديريه · وكانت أول مرة أرى فيها محفظة عبده ، ولم أكن اتصور أنها بهذه الضخامة فقد كانت أضخم محفظة ممكن أن تراها فى حياتك وقد توليت بنفسى تفتيشها وافراغ محتوياتها ، وكما توقعنا لم يكن بها غير خمسة قروش فكة أحدها معضوض صدىء لايصلح للتداول · ومرة أخرى دفع الجزار البدين يده فى جيب الصديرى نفسه ، وكالمتوقع لم تخرج بشىء ، كلها اجراءات شكلية فقد كنا جميعا ندرك أن النقود هناك ، مخبأة لابد فى طية من طيات الشريط. وبذلك التحفز النهم للفضيحة ، ولادراكنا اننا حالا وعينى عينك سنضع يدنا على ذنب المذنب وأمامه سنخرج من جسده نفسه جسم الجريمة ونتنشى النشوة الكبرى ونحن نستعد لنرى وجهه لحظتئذ ونسمع مايقوله ، بذلك التحفز امتدت يدى ويد الجزار نفك عنه الشريط ، غير آبهين لصرخاته واستغاثاته وقوله ان فك الشريط عنه معناه موته اذ الشريط هو الذى يمسك الأورطى المقطوع فى مكانه، صرخات لم تفعل أكثر من أنها أثارت الضحكات والتعليقات الساخرة وحفزتنا نحن القائمين بفك الشريط الى المحطة القصوى لحظة اكتشاف النقود ، وفككنا بعض الاشرطة وصراخ عبده قد آب الى سكوت يائس بينما امتلأت عيناه بالماء الدامع الذى لايصاحبه أى احمرار ، وحتى لو صدقناه واعتبرنا انهم عملوا له عملية ما فمن الواضح انه يكذب فالاشرطة كانت بيضاء نظيفة ليستفيها بقعة دم واحدة ولا آثار جرح ، ولهذا

مضينا نفك وانما بحرص مخافة ان تسقط منا النقود لدى اللفة التالية . فقد كنا جميعا واقفين ، ومشاركين ، وكأنما عبده هو الآخر ينتظر ظهور النقود لدى اللفة التاليـة ، وكنت الف من ناحية وأسلم الشريط الى الجزار البدين ليفكه من ناحيته ويعود ليسلمنى اياه ، ويبدو اننا كنا قد استغرقنا في العملية الى درجة انى مددت يدى أتسلم منه الشريط مرة فلم أجده اذ كان قـد انتهى ، وقبل أن أنظر الى عبده أحسست بشـعور غريب ما يعترى الواقفين وحين اتجهت ببصرى اليهم وجدتهم جميعا وقد خيم عليهم صمت كامل مريب بينما عيونهم كلها مصـوبة الى جسد عبده جامدة لاتطرف وكأنها عيون موتى · ونظرت الى حيث ينظرون ·· كان عبده عاريا تماما وكان هناك جرح طويل جدا يمتد من صـــدره الى آخر بطنـــه ، وكـــان صـــدره وبطنـــه فارغين وكأنما انتزعت منهما كل ماتحتويه من أجهزة ، وكان الاورطى يتدلى من صدره من مكان القلب كمزمار غاب ســـميك طويلا وشاحبا ومقطوعا يتأرجح داخل بطنه كالبندول ··

مايو ١٩٦٥



صاحب وطن





فكرت أن أجعل للرجل زوجة جميلة صغيرة لتلائم سنه الكبير، فكرت أن أجعل الجميلة بنته ، ولكن الزوجة مغرية أكثر ، والقارىء الملول لابد أن يسيل لعابه تتبعا للزوجة الصغيرة الحلوة أملا فى حدوث المتعة الكبرى بشم رائحة الخيانة أو التلظى نشوة وقلقا على نار الشك فى وجودها .

فكرت فى أشياء كثيرة ، وتصورت وكأننى الكاتب المحترف ، كل الآفاق المثيرة المجهولة التى يمكننى أن أقود اليها القارىء الهاوى النهم ، كى أجد تفسيرا لحماس صميدة للرجل العجوز ، وصميدة ليس اسمه ، وأنا لا أعرف اسمه ، ولكنى لابد اذا سميته أن أختار له لقبا كصميدة ، فيه حرف صاد مذكر الموسيقى ، جهيرها ، ليعبر عن شخصه .. ولابد أن ارتباكا قليلا قد حدث وأن الحيرة تملكتكم عن أى الرجلين أتحدث .. الواقع كان هناك رجلان كل منهما يستحق الحديث ، ولكن الانسب أن نتجاوز عن كليهما معا لنتحدث عن المشهد ، فقد كان هناك رجلان ومشهد ، والمشهد ليس بسيطا أبدا رغم خلوه التام من الفواجع والكوارث وكل مسببات التوتر ، ولكى نبدأ علينا أن نتصور مكانا معزولا تماما عن العالم كأن الدنيا بكل غموضها ومجهولها تنتهى عنده ولكننا لابد أن نعتقد انها أبدا لاتنتهى عنده ، فالطريق الذى نقطعه يظل

ممتدا بعد بقعتنامثلما يظل ممتدا قبلها . الى مالا نهاية البصر . بالاحتصار لنتصور طريقا من طرقنا المسفلتة الطويلة يمر بمساحة شاسعة من الارض غير الزراعية أو المطروقة او تعرضت فى عمرها الملايينى الكثير للمسة من يد الانسان ، صحراء ، أو براری أو جبل وعر على امتداد الأصبع الخنصر لبحرنا الاحمر . ان طريقا كهذا يظل كالخط المستقيم بلا فائدة ، كالرجل المستقيم بلا مبدأ وبمجرد المحاكاة والتقليد . لامعنى له ولاقيمة لاستقامته ، حتى يحدث له حادث ، ينتهى مثلا أو يلتوى ، أو بالذات يلتقى بطريق غيره أو يتقاطع ، هنا فقط ، عند التقاطع واللقاء يصبح للطريق المستقيم الممتد معنى ، اذ يصبح التقاطع وكانه الاثبات لنظرية كانت قبله فرضا ، ووصولا كان طوال الطريق مجرد حلم كحلم الجوعان بالخبز .

لنتصور حادثا كهذا وقع لطريقنا الذى اخترناه ممتدا بلامعنى فى أرض متسعة بلا مفهوم ، ولنكن أيضا على ثقة اننا لن نكون أول المتصورين ، فقبلنا بكثير سنجد أن الحكومة باعتبارها المسئولة عن الارض والطريق وكل الاشياء ذات المعانى والمعدومة المعنى قد تصورته ، وأدركت أهمية هذه الحقيقة الفلسفية أو الصوفية المحضة ، مع انه ليس من عادة حكومة فى العالم أن تعير أمثال هذه الحقائق التى ينقسم عندها البشر ، وأحدثت ولاتزال تحدث أعظم الهزات والمعارك والانتصارات الانسانية أى التفات ولكنها بالسليقة من زمن لابد أدركتها . وبادرت فاقامت عند هذا التقاطع (كشكا) ، وقالت لعسكرى كن داخل الكشك فكان ، وهكذا انحسرت كل المعانى الكلية المهولة عن التقاء الطريق

بالطريق وتقاطع الطريق مع الطريق ، وكما يضيق (القمع) ويتدبب ، ضاع المعنى وانكمش واتخذ بالكشك والعسكرى فى الحال مفهوما واضحا خاصا ، بل حتى الارض نفسها ، تلك التى كانت من أمتار قليلة مستمتعة بلا جدواها ولا أهميتها وبحريتها أن تمتد اذا أرادت وتتجبر وتتجبل اذا أرادت وشاءت أن تمتد ، وتجن وتطلق شعورها وبراريها ولحاها كلما عن لها أن تصنع ذلك ، أصبح عليها منذ الآن أن تدير رأسها وأن تعقل وتخفى عورتها ومن الكرة الارضية الهائلة والكون والطبيعة تنسلخ وتتخذ أسماء وتنتهى الى شعب محدد والى جزء من أرض ذلك الشعب ، محافظة أو مركزا تتول وكما يعطى العسكرى والكشك

للارض والطريق هذا المعنى المحدد الخاص ، يرتد العطاء . ويصبحان أو على الاقل يصبح العسكرى ، ليس مجرد اى عسكرى فى اى كشك . ولكنه . فى ذلك الجزء المقطوع عن العالم المعزول يصبح المثل الحى للنظام العام الذى أخضع الارض وحدها وسماها وامتلكها ولكافة القوانين التى ابتكرتها عقول من أصبحت تمت لهم هذه الفرس الوحشية .. الارض .. وراكبها الذى استأنسها .. ذلك الطريق ..

فى ذلك الوقت . ولنجعله بعد الظهر بقليل وقد انتهى العسكرى من تناول غدائه بحيث يمكننا أن نقدم عليه بلا حرج ونجلس اليه على أمل أن نتحدث ، وحتى قبل أن يدور أى حديث بمجرد الجلوس ، ستدرك أن البقعة قد تكون معزولة ومهجورة بالنسبة للآدميين وللراجلين ، ولكنها أبدا ليست كذلك بالنسبة للعربات ، فما تكاد تمضى دقيقة حتى تكون عربة قد أقبلت ، بل أحيانا يتراكم لدى الكشك أكثر من عربة ، كل ما فى الامر انها ، فى الخلاء الواسع لاتبدو للعيان .. قلما تصادفك عربة اذ هى نقطة لاتظهر الا عند الكشك من الخلاء الواسع الشفاف تظهر فجأة كان دخانا كان يخفيها باتساعه وشفافيته ، والى الخلاء الواسع تعود الى الاختفاء بعد اجتياز التقاطع ولا حول ولا قوة الا بالله .

وحتما لابد نفاجأ ، قبل أن نبدأ نعير العسكرى نفسه اى التفات وانما نحن مشغولون بتأمل المكان الفريد الغريب ومتابعة غير قليل من الافكار التى يولدها بالضرورة وجودنا لأول مرة فى مكان كذاك ، حتما لابد نفاجأ حين يقبل رجل عجوز قصير القامة ، أول مايلفت النظر اليه جبهته السمراء البارزة المحدودبة ، ومقدم رأسه الخفيف الشعر الأشيب ، ينحنى على المنضدة الموضوعة أمام العسكرى ليستطيع أن يصل الى حافتها الملاصقة له ، ثم يضع ويا للمفاجأة كوب شاى متوسط الحجم ، رخيص الزجاج وان بدا الشاى نفسه جيد الصنع عنبرى اللون محمرا ، تماما كما يحبه أنصاف الكييفة ، ونفاجأ أكثر حين نجد ان العسكرى نفسه لم يفاجأ بما حدث وكأنه كان يتوقعه ، وكأنما هى عادة ، وحتى اذا كنت متوسط الذكاء فلن تأخذ وقتا طويلا لكى تدرك ان الرجل العجوز صاحب مااصطلحنا على تسميته بالفرزة او

القهوة الصغيرة المتنقلة وانه يحط رحاله تحت شجرة على الناحية الاخرى من الطريق وانه لابد قد لاحظ أن العسكرى قد انتهى من تناول غدائه فاحضر له كوب الشاى ٠ كما قلت ،لاحوادث هناك ولا شيء غير عادى ٠ من الطبيعى جدا أن توجد قريبا من هذا التقاطع غرزة صاحبها رجل عجوز أو مريض وان يتعامل العسكرى معه ، وأن يحضر له الشاى ، وأن يقدمه فى أدب ٠ ولكن أشياء غير عادية بدأت تحدث ، منها مثلا أن يدفع العسكرى يده فى جيب بنطلونه الامامى (فجيوب بنطلونات العساكر مركبة الى الامام ولا أحد يعرف لم) ويخرج قرشا من جيبه ويعطيه للرجل العجوز قائلا ، خذ قبل ماانسى ٠ حادثة لاشك ، فالمفروض والعسكرى يمثل كل ماذكرته آنفا ، والرجل يمثل التجار الصغار ، أن يتقاضى ضريبة يضعها تحت أى أسم يشاء ٠٠ ضريبة ليست أقل من كوب الشاى مثلا ، وأن يعفى العسكرى هذا الرجل من الضريبة ، ليس فقط ٠٠ بل أن يخسر من جيبه قرشا ، أمر له دلالة خطيرة لابد ٠ أن هناك سببا لهذا الاستثناء ، فاذا اتضح أن لاسبب هناك فمعنى هذا اننا فى مواجهة ظاهرة خارقة ٠٠ عسكرى مرور ٠٠ ملك متوج على بقعة نائية مهجورة ويستطيع من هذا المكان أن يسيطر على غرائزه وبالذات على غريزة فرض الضرائب غير القابلة للسيطرة والتحكم ، ويكون ذا ضمير مستيقظ لماح ٠

هنا لابد أن تلتفت كلية للعسكرى ،وتعيد النظر فيمادار بينك وبينه من حديث ، الآن تستطيع التحدث بهدف ، ولكنك اذا تحدثت فستقطع أخطر محاورة مفروض أن تدور حالا بين العجوز والعسكرى ، لاننا لن نستطيع ادراك مضمون الحوار ادراكا حقيقيا الا اذا وضحت لنا صورة العسكرى فلا بد لنا أن نؤجل الحوار الى حين ٠ العسكرى شباب فى حدود الثلاثين ، فى حديثه وآرائه تحديدات من لم يتزوج بعد أو ان كان قد تزوج فلم يستطع الزواج ان يصيب شخصيته ، كما يصيب الجسد ، بالترهل وعدم الميل الى التحديد ٠ الزواج باعتباره عملية تنازل مستمرة ومساومة فى أحسن الأحوال يصيب الرجل بعادة الرغبة فى المسالمة والبحث عن الحل الوسط ، فالحل لابد أن تكون لها نهايات مفتوحة تجعلها قابلة للتراجع

التام فى أحيان ، أو الاتصال بجملة اخرى تغير تماما من المعنى المقصود ، الزواج ضد نقط النهاية وضد الحسم وربما خوفا من سوء وضع النهاية ٠ ماعلينا ٠ شخصيته محددة ، آراؤه فى الناس أيضا محددة ، وكذلك فى عمله وطبيعته ،وهذا شيء نادر عنا ، فالوظيفة ، أية وظيفة ، كالزواج تماما تعلم صاحبها فتح الجمل وكثرة استعمال حروف الوصل واللضم والجر والألفاظ التى تحتمل أكثر من معنى وتفسير لاستخدام معناها الآخر كسلم الحريق حالة وقوع الكوارث وتحمل المسئولية ٠له شارب ٠٠ تحس أنه عن عمد قد وضع شاربا ،لا للعياقة أو اظهار الرجولة فى حاجة الى اظهار وانما لانه ــ مادام الناس صنفين ــ فقد اختار أن يكون من الصنف ذى الشارب ، صعيدى أو عربى فلا تزال به بقايا قبلية ، فى لغته وفى ميله الى الحديث عن كل ماهو عام ، فالانتماء يبعد عن الذات وكل ما يمت الى الشخص بمفرده ٠ ولا أستطيع أن أقول انه شهم ذو نخوة وأريحية ، فلم يكن قد بدا منه ماينبيء بأى من هذا ، ولكنك تتمنى ٠ بل ترجح أن يكون شهما ذا أريحية ، ولكنه أبدا ليس كاملا ، فصحيح انه يعامل السائقين بمساواة تامة ، لا يبالغ فى رد تحياتهم المفرطة وكذلك لا يرد عليها بتعاظم وتكبر ، ولكنه يكاد ينتفض واقفا اذا جاءت التحية من عربة ملاكى ، فعلى رأيه من يمتلك عربة لابد أنه صاحب نفوذ ، موظف كبير ، أو صاحب مهنة غنى ، أو ابن لهذا أولذاك ، وليس من العقل أوالحكمة أن يصطدم من كان مثله بأمثالهم ٠٠

قال العجوز بعد أن وضع كوب الشاى بأدب تحس منه أن الأدب أو بالأصح ــ حتى لايختلط الامر ــ التأدب كان ذات يوم حرفته ، ويذهب بك الخيال الى أنه من الجائز ان يكون قد عمل سفرجيا فى قصر باشا أو على الأقل مساعد مرمطون ، قال : أنا لى رجاء عندك ٠

ولم يكن العسكرى قد أدرك بعد انه يرجوه وربما كان لايزال منصرفا الى تأمل الشاى وتهيئة نفسه لارتشافه ٠٠ فاستطرد العجوز يقول : لو تتكرم وتسمح لنا بعربية نقل تاخذنا ٠٠ وقال العسكرى وهو منصرف أيضا ... الى أخذ

الرشفة الاولى من الشاى . ما أعذب الرشفه الاولى من أى شىء:
تاخدك فين ؟ ..

ربما حسن يريد أن يقضى مشوارا فى أقرب مدينة تلك التى لابد تبعد عن المكان بعشرات الكيلومترات ، ولكن العجوز قال: لصمل أنا ما احبش المواضيع لما تحصل كده ، يبقى أحسن باخدها من قاصرها وتتكرم علينا باى سواق توصيه ..

قال العسكرى وملامحه القمحية ذات الندوب تنكمش انكماشات التأثر ان لم يكن بعض الغضب .

هو جالك تانى ..

قال العجوز وهو لايزال سادرا فى رجائه : وقال لى :

ورغم هذا قاطعه العسكرى : وقال لك برضه ..

قال العجوز : وقال لى برضه فانارأيى أحسن طريقه زى ماقلت لسيادتك كده آخدها من قاصرها حاكم المسائل لما بتوصل على ايه ده كله كلمتين منك وأى سواق وكتر ألف خيرك ..

قال العسكرى وقد بلغ الانكماش بملامحه درجة الانفراج اذ الغضب كان قد بدأ يتحول الى كلام : اسمع ياعم حسن أنا قلت لك طول مانا هنا ماحدش يقدر يقرب لك ..

- بس أنا المسائل لما بتوصل أقول لنفسى على ايه الارض أرض الله ومافيش أوسع من أرض الله وربك بيقطع من هنا ويوصل هنا وكلمتين لسواق ..

بحزم هذه المرة قال العسكرى : والله لما يكون هو الجن الاحمر مش يكفاك كلمتى أنا قلت طول مانا هنا لاهوه ولامليون واحد زيه يقدر يهوب ناحيتك ، بس ركك أشوفه مرة وأنا اعرف شغلى معاه ، هو جالك امتى ؟

- من شوية ..
- جه منين ؟ ..
- م الناحيا دى ..
- وراح فين ؟ ..
- م الناحيا دى ..
- وازاى ماشفتوش ، ركك بس اشوفه . انا مش قايل لك لما يجيلك اندهلى ..

- ياسيدى ربنا يخليك ويكتر خيرك ، بس أنا كان قصدى يعنى ان المسائل لما بتوصل مفيش داعى وكلمتين منك ..

- خلاص يا عم حسن ، بس لما يجيلك اندهلى ..

وكان العسكرى قد انتهى الى آخر نقطة من شرب الشاى ، فتناول العجوز الكوب ، ومسح قاعدته السميكة مرة أخرى . وانحنى ومد يده ، ومسح الدائرة المبتلة التى صنعتها على المنضدة ومضى وهو يتمتم لابد بدعوات وكلمات شكر ..

لو رأيت هذا المشهد لدفعك حب الاستطلاع حتى الى سؤال العسكرى عن معنى هذا كله ، ولخمنت حتى قبل أن يبدأ فى أن سببا ما لابد يدعو العسكرى للتمسك بوجود عم حسن العجوز كل هذا التمسك ..

ولو كنت تكتب قصة بطريقة التأليف كما يفعل بعض الناس لألفت للموقف امرأة ، مثلما كدنا نفعل فى البداية ، ولجعلناها زوجة صغيرة لعم حسن العجوز أو ابنة فائرة لعوبا ..

لابد سيدور بخلدك شىء كهذا ... فالعسكرى لا يذكر لك شيئا كثيرا .. انه يؤكد لك ، بلا حاجة للتأكيد أن الرجل عجوز وطيب ، وأن له فى هذه البقعة بضعة أيام ، وقد كان جالسا فى نفس مكانه .. وجاءت عربة نقل ووقفت كالعادة وبينما السائق يذكر له الرقم ، واذا من الصندوق ترفع الهامة القصيرة لعم حسن ، واذا به يتطلع الى المكان ، ثم تقع عيناه على الشجرة فينحنى ناحية السائق فى الكابينه ويشكره ويطلب منه . بأدبه المعهود ، أن ينزله هنا قائلا انه قد اختار هذه البقعة لينصب فيها نصبته ، وبمساعدة الشيال ينزل عم حسن اشياءه الفقيرة القليلة ، ويستأذن من العسكرى ويقضى بقية اليوم فى اقامة (الغرزة) ..

وتلك هى حياة عم حسن التى اختارها .. وكل انسان منا يختار حياته بالطريقة التى تحلو له ، بعضنا يختار المهنة الناجحة ويقضى عمره يحارب زملاءه من أبنائها الناجحين ويكيد لهم ويكيدون له ، وبعضنا يختار مهنة البحث عن مهنة ويظل العمر ينتقل من عمل فاشل الى عمل فاشل ، ولكل منا كما قلت

مهنته التى يفضلها أو التى يلعنها أو التى تتلاءم مع ذاته وطبيعته وصفاته .. وعم حسن قد ترك هذا كله واختار لنفسه مهنه أن يخدم الناس حيث لا يتوقع الناس خدمه ، فهو لا بلد له ولا بيت ، موطنه الدائم يوجد حيث يوجد بيته وبيته يوجد حيث يوجد عمله وعمله يوجد حيث يرى ان حاجة الناس اليه أكثر وأشد ..

وهو يصنع القهوة والشاى والمعسل .. ورأسماله بلا رأس وبلا مال ،وهو يوجد اليوم هنا فى بقعة مهجورة من طريق السويس ــ الاسماعيلية لابدعندها تقاطع أومحطة أو شىء ما.. هنا حيث يصبح لكوب الشاى قيمة لا تقدر ، خاصة اذا قدم لسائق منهك استيقظ منذ الفجر وعليه قبل أن ينام أن يقضى الليلة القادمة بطولها سائقا .

ويظل عم حسن فى المكان حتى يزهد هو فيه أو يزهد فيه المكان ، أو تصل المسائل على حد رأيه الى حيث يصبح لا داعى للبقاء ، يشير عم حسن لأية عربه قادمة ، فى هذا الاتجاه أو ذاك ، فسكك الله كلها له وكل مكان فيها مثله مثل أى مكان ممكن أن يصبح بلده وموطنه ومسقط عمله ، ويركب عم حسن هو ورأسماله ، وفى أى اتجاه يتصادف أن تكون العربة ذاهبة اليه يذهب ، وعند أية بقعة فى المسافة يراها عم حسن تصلح مكانا يحتاج فيه الناس والسائقون بشكل خاص للخدمة ولا يجدونها ولا يتوقعون وجودها ينحنى على السائق يطلب منه بأدبه المعهود انزاله ، وعادة .. بل لم يحدث أن تقاضى منهأى سائق أجرا ، وينزل ، ويظل يعمل ، وقد يقضى فى البقعة أياما وقد يقضى فيها ــ كما حدث ــ سنتين ، الى أن تصل المسائل الى الحد المعهود فيشير عم حسن الى أول عربة نقل قادمة ، وهكذا ..

ولابد ــ خاصة اذا كنت مثقفا .. مقيدا بألف قيد وهمى أو من صنعك الى عملك ــ تمنعك أشياء ليس أقلها الخوف الشديد أو بالاصح الجبن من أن تفكر ، مجرد تفكير ، فى تغيير محل عملك أو عملك نفسه أو حتى محل اقامتك ، لابد أن تحسد عم حسن على حياته تلك ، فهى فى رأيك لابد أرحب وأوسع حياة ، حياة ألغت المكان والزمان والبعد الرابع وكل

الابعاد ، البلد كلها .. بملايين الكيلومترات التى تكون سككها وطرقها ومساحتها ، ملكك .. ملكك حقا لا مجازا ، اذ ماذا تفعل بالملكية قدر حقك أن توجد فى المكان الذى تمتلكه وقتما تريد وأى زمن تشاء وهل يحتل صاحب العمارة مهما كبرت أكثر من المقعد الذى يجلس عليه أو الفراش ، وما متعه من يمتلك مئات من الافدنة أو بضع عمارات .. ولكنه صاحب مصر كلها ، من حقه أن يحل بأى مكان فيها فى أى وقت يشاء ويستمتع ما شاءت له المتعة باحساسه انه صاحب المكان وأى مكان ..

وجزء من دوافعنا للالتصاق بمنطقة بعينها من المدينة أو القرية ، بل بشارع ، بل ببيت بعينه من بيوتهاهو اننا نعرف الساكنين معنا وحولنا ونأتنس بهم ، وجزء من خوفنا أن نغادر ذلك البيت أو الحى ونقطن فى غيره ، أننا نخاف تجربة الغربة مع أناس لم نعرفهم بعد وحتما لهذا نتوجس منهم .

ان ما يدفعنا للالتصاق بمكان محدد وناس محددين اننا نخاف الامكنة الاخرى والناس الآخرين ، فنتقوقع على ما نعرفه ومن نعرفهم حتى لو قضينا الاعمار نمله ونملهم ، عم حسن العجوز لابد انه لايخاف الآخرين ، ومادام قد اعتبر مصر كلها بيته ومكان عمله فلا بد انه اعتبر المصريين كلهم صعايده وبحاروة وشراقوة ، وغرابوه ، أهله وأبناء حيه وحتته ، وهكذا وبمنتهى الجرأة والألفة والبساطة ألقى نفسه فى وسطهم فى البحر الضخم الهائل الذى يكون ملايينهم .. ومن الواضح تماما انه لم يغرق ، وأن الايدى رفعته ، ولازالت ترفعه وتتداوله ، ومن المكان الى المكان يلقى بنفسه الى يد ترفعه بحنان ورفق لتضعه حيث يحدد أو لتسلمه الى يد جديدة اذا أراد .. وكأنما أبرم الرجل اتفاقا مع المصريين جميعا أصحاب البلد ، أن يقدم لهم القهوة والشاى فى المكان الذى يفتقدون فيه القهوة والشاى أكثر .. وفى مقابل هذا عليهم هم المصريين أن يتكفلوا بأمر عيشه وسكنه واقامته وتنقلاته كلما حلا له أن ينتقل ..

وكما تؤثر الوظيفة فى الموظف ، وكما يصبح من خصائص سائق الاتوبيس صوته المرتفع اذ لابد له أن يرفعه ليغطى على

صوت الآله الحديديه والآله البشريه ليسمعه الركاب او حتى
ليبلغ شتائمه الى الراكب الذى اثر ان يدخر رأيه الصريح فيه
الى اللحظة التى يضع فيها قدمه على الارض ويتحرك الاوتوبيس
.. كما تنمى الوظيفة ذلك الجزء من الانسان الذى يتعامل به
مع الآخرين .. وبالتالى تنمى لدى الآخرين ذلك الجزء الذى
يتعاملون به معه ، فعم حسن يتعامل مع جزء نادر ، أو بالدقه
نادر العمل .. فى الناس .. ذلك الجزء المخصص للعمل من أجل
الآخرين .. الجزء الانسانى الضامر فى أناس كثيرين .. الذى
ربما حولته الاجزاء الانانية لدى البعض كما تحول الاماكن غير
المستعملة – الى مخازن تختزن فيها أحصنة النهم الاضافية
ومغذيات الطموح الفردى الصغير ..

عم حسن يعامله الناس ، والسائقون الذين يبدون وكأن
قلوبهم قد قدت من جرانيت أصم ، بأجزائهم الانسانية ، وما
اكبر هذه الاجزاء أحيانا بالذات فى قلوب هذا النوع المخيف من
السائقين .. ولأنه يحيا ويتنفس ويأكل وينام بهذه الاجزاء
وبما تهيئه له . فقد اكتسب هو الآخر طابعا غريبا يميزه عن
جميع الناس . فأدبه الزائد ليس ذلك النوع الممتثل الذليل
الذى تدرك فى الحال مدى ما فيه من ضعة واسترزاق .. انه
نوع عميق من الادب ، لا ينبع من الانحناءات والكلمات الهامسة
... وان كانت بعض أعراضه كلمات هامسة .. ولكنه يهمس
لا ليريك ويظهر لك انه يهمس ولكن لانه يرى بادراكه انك
ستستريح أكثر لو همس ، نوع من مراعاة الشعور ، ولكن لان
مراعاة الشعور لدى معظمنا لا تحدث الا لسبب والا لحاجة لك
عند من تراعى شعوره فاعتقد انه من الصعب أن نتصور مراعاة
الشعور لمجرد مراعاة الشعور .. لمجرد أن انسانا يحترم شعورك
فعلا ويقدره – مهما كنت – ويهمه مراعاته ، بل حتى فى طريقة
سؤاله للناس ، انه يفعل هذا بادب صحيح ولكنه أدب فيه ثقة
بنفسه وكأن المسألة أمر مفروغ منه ، فرق كبير بين أن تطلب
من انسان لا تعرفه شيئا وتحاول حينئذ ولأنك تفترض انه ليس
من حقك أن تطلب منه وهو الغريب عنك شيئا أو تسأله
معروفا ، تحاول أن ترقق ما أمكن من طلبك ولهجتك وتودع

فيها كل ما يمكنك ابداعه من رقة السائلين والمقترضين ومن
يطلبون بذله . فرق بين هدا وبين هدا وبين ان يطلب من انسان
تعتقد انه فعلا أخوك ومن اقربائك ، ولك عليه مثلما له عليك ،
أن تسأله ، ومن واجبه وليس تفضلا أو تنازلا ، أن يعطيك .

ولكن تلك تفاصيل لا معنى لها .. ومحاوله يائسه لشرح
« كل » من الصعب شرحه ، فعم حسن ليس مجموعة تصرفات
كهذه ، ولكنه أولا روح كاملة ربما بعض مكوناتها تلك
التفاصيل .. انه روح غريبة تعيد الى ذهنك آثار الظواهر
الطبيعية وهى تعمل عملها عبر ملايين وملايين من السنين لتفتت
الصخر الكبير الى رمل دقيق أملس رائع التكوين . لتقدم من الصخر
نهرا عذب الماء كنهر النيل . لتصنع من الزلال وزلال الزلال
حياة ومن الحياة كائنات ما أروعها حين تتاملها كالسمك دافقة
بالحياة عامرة بالتفاصيل ، كالاسود جليلة مروعة يدبخك مجرد
تفكيرك أن الاسد العظيم منها كان ذات يوم قريب كائنا لا يرى
الا بميكروسكوب ، كائنا كان هو الآخر ومنذ أيام قريبة أسدا
عظيما كذلك الاسد .. وتأمل كيف أستطاع آلاف الناس
بمراكزهم وتصرفاتهم الانسانية أن يخلقوا أو يدربوا ذلك
المركز فى عقل عم حسن وشخصيته ليكبر وينمو ويزدحم ،
ويحيل هو هذه المرة مراكز الانانية ومايخص الذات الصغيرة الى
مخازن يودعها مشاريعه القادمة للناس .. لحب الناس ، لكى لا
ينسى وهو فى قمة انشغاله ، وحوله السائقون مزدحمين كل
يريد أن يحظى منه باكبر جرعة من الحديث والشاى ، ان عسكرى
المرور يتغذى ، وانه انتهى من طعامه وانه فى حاجة الى كوب
شاى ..

لنتصوره بوجهه الاسمر ، وصلعته النامية الخفيفة ، باذانه
الكبيرة التى تؤكد ملامحه ، بانفه الكبير قليلا يؤكد رجولته
ويؤكد فى نفس الوقت طيبته اذ لا شموخ فيه ، واتساع
فتحتيه يريحك ، وعيونه ليست أبدا كعيون الملائكة ناعسة
سارحة ، أهم شىء يجذبك اليها هو يقظتها ، وليس يقظتها الى
ما يدور فى عقل صاحبها وانما يقظتها اليك أنت ، الى ما تفكر
فيه ، الى أحوالك وكيف تبدو وهل مدى ابتسامتك الواسعة

ان كل شيء بخير أم يا ترى تنبيء عن ضيقك بما تحسه من ضيق .

وانها لسعادة أن تنظر الى عم حسن وبالذات الى جبهته العريضة البارزة التى اذا قستها بالمقاييس المتواضع عليها للجمال لبدت قبيحة ، انها لسعادة أن تنظر اليها فتحس أن لم يدر خلفها شيء ، فكرة أو خاطر يضر بانسان .. أن تدرك بوعى وعمق أن هذا الرجل الذى ينظر اليك بجماع نفسه لا يفكر أبدا فى ايذاء أحد ولا يمكن أبدا أن يفكر فى خداعك أو السخرية منك والضحك عليك ، ان ما من فكرة شريرة عرفت أو يمكن أن تعرف طريقها الى رأسه .. لا أحلام غنى باهظ راودته واستعد معها لأن يدوس الغير فى طريقه اليها ، ولا أمنية الحت عليه أن يكون له مالك أو بعض مالك ، وانه لايحسدك أبدا على منصبك أو وسامتك أو زوجتك المخلصة .. ولم يفكر أبدا فى الحط من شأنك حتى بينه وبين نفسه لكى يثبت لها مثلما يحلو للبعض أن يفعل انه أحسن منك ، انه لشيء رائع ومحير ومثير للخوف أن تدرك أن كل هذه الصغائر التى يقضى بعضنا تسعة أعشار أعمارهم يلوكونها فى عقولهم ويقيدون بها قدراتهم .. ويلوثون بها ضمائرهم ، وطبيعتهم الانسانية التى تخلق نظيفة حساسة ، هذه الصغائر كلها لامحل لها فى عقل عم حسن العجوز ، ترى أى مكان رحب يصحبه عقله ، أية حرية تتمتع بها خواطره .. أى أمان شامل كان يظللها ويظلله .. أجل الامان الذى يقلب الناس دنياهم ويحفرونها مخابيء ودهاليز ليحتموا بها من الاعداء المعروفة والمجهولة ومن الزمن والمرض والخيانة ، وكلما بحثوا عن الامان خافوا اذ يدركون أنهم مهما فعلوا فليس هناك دواء شاف أو ملجأ أكيد ، وكلما خافوا على أنفسهم من الآخرين أخافوا الآخرين منهم حتى تنقلب العقول الى مواقد مجنونة للقلق والرعب ، انه يتصرف دون أن يحسبها ويفكر ، ويفكر دون أن يحسبها ليعرف بماذا يتصرف ، فالحاجز الذى يضعه الكثيرون بين التفكير والتصرف حاجز سببه انهم حين يتصرفون يخجلون مما يفكرون ، وحين يفكرون يخافون

التصرف بمثل ما يفكرون ، يا لروعة عم حسن وتصرفه يمضى فى تسلسل وصفاء مع أفكاره ، وأفكاره من تلقائها وبلا جهد يضيعه أو يفقده تصنع تصرفاته ، وليس فى وسط الدائرة الا غيره ، الا الانسان الذى تسوقه اليه الصدف ، الا الكلمة الحلوة التى لابد يحتاجها ليقهر هذا العبوس ، الا الشربة من ماء القلة الباردة ترد الروح التى تتسرب من جسده .. مع حبات العرق المنهمر ، الا كلمة طيبة يقولها لصديق الطريق وهو قائم بنفض التراب عن جلسته ويستعد لسفرته القادمة المجهولة : خلى بالك .. الدنيا ليل ونورك واطى لما تقابل عربية هدى ، وحياة بنتك الغالية لانت فاكر كلامى ومهدى ..

وقد يعتقد البعض ، ولهم الحق ، أنى أنبذ الواقع وأتحدث عن انسان خرافى غير موجود . ولكن الكارثة الكبرى أن عم حسن موجود ولا يزال الى الآن حيا يسير ويتنقل أنى وجد فى مصر طريقا ، ولكن المشكلة ، أجل المشكلة ، أن الدنيا كلها ليست عم حسن ، وأن المسائل لابد أن تصل يوما الى الدرجة التى يصبح معها من العبث البقاء ..

••

ولنعد الى الرجلين والمشهد ، ولنؤمن الآن وقد عرفنا الكثير أن ليس فى الأمر زوجة أو ابنة ولا سيدة بالمرة ، ليس لأن عم حسن لم يتزوج ، فالحقيقة أنه مرات تزوج ، ولكن زوجاته كن ، بعد فترة ، وبعد انقشاع الرغبة فى التغيير ، يضقن بحياته ويردن البيت والعمل الثابت الذى لا يبحث فيه عن الناس وانما على الناس فيه أن يبحثوا عنه ، من هنا كان يدب الخلاف ، وينطلق عم حسن الى طرقاته ومحطاته ودنيا الله الواسعة وينطلقن هن باحثات عن الامن والثبات الذى يصنع الاولاد .. لنعتقد اذن أن ما بين الرجلين ان هو الا صلة أخرى من صلات عم حسن بالناس ، تلك التى تنشأ فى لحظات ، وتظل تنمو ولا تكف عن النمو كلما مر عليها الوقت ، عكس ما يحدث فى العادة ، فما أرحب وأوسع ما تنشأ العلاقات وما أسرع ما تبدأ تضيق ، والمشغوليات بالنفس كثيرة ، والعلاقة التى لاتنفع تضر ، والأهم

الغالب أن تنتهى العلاقات الى ذلك الخيط الرفيع الذى يفصل بين الجهل والمعرفة ، فتعرف الشخص وكأنك لاتعرفه ، وصلتك به لا تتعدى أكثر من يد عالية ترفعها بالسلام من بعيد ، أو ايماءة من رأس أو أضعف الايمان ابتسامة وكأنما لتثبت بها لنفسك انك تنتمى ، مجرد انتماء ، الى هذا الجنس ..

والعسكرى يروى كيف بدأت الحادثة ، فمنذ بضعة أيام ، ذهب الى عشة عم حسن ، لأول مرة ، عابسا شديد العبوس . ولابد لنا لكى نكمل القصة أن نعرف أشياء كثيرة عن العسكرى بشكل عاجل ، فهو قروى حياته الحقة بدأت بالعسكرية ودخول الجيش . وكان الجيش مدرسته ، هناك صاحب شبان المدينة وعرف المدينة من خلالهم ، وخرج وقد آلى أن يعرفها بنفسه . والمدينة صعبة على من يريد معرفتها بقيم فلاح ودردحة ذكى . ولكنه رغم هذا استطاع أن يجد لنفسه مكانا غير رسمى فيها . وهو وان كان يقضى معظم أيامه مقطوعا فى كشك ، الا أنه فى أجازته يعوض كل ما فاته ، وحتى بنات الليل يستطيع مصاحبتهن .. وله فى كل مدينة يحل قريبا منها جلسات ، وقعدات وأركان ودائما يعثر على عشيقات ..

غير أنه من يوم أن حل عم حسن فقد الحماس تماما للمدينة ولكل ما ينتظره فيها . فساعة واحدة كان يقضيها مع الرجل كانت تمتعه بما لا يستطيع الوصول اليه الا فى أيام ، فعم حسن عاش وشاف ، وعاش وشاف بطريقة لم يعش أو ير بها احد ، فغيره يجلس مع الرجل ، بل أحيانا يجاوره لشهور وسنين دون أن يعرف عنه الا اقل القليل . عم حسن كان يغوص من فوره فى النفس محبة أو بناء على طلب صاحبها ، وفى دقائق يعرف مالا يعرفه غيره فى ساعات ، فوجهه كان يملك اللمسة السحرية المتناهية البساطة ، التى تفتح النفس ، والنفوس دائما تواقه لان تفتح وأغنى مافى الارض ليس كنوزها وما تحتويه قشرتها ، أغلاها ما فى نفوس الرجال من ثروات ، ان فى داخل كل منا كنزا تجمع وتراكم فيه عشرات السنين وآلاف الخبرات ، كل نفس كالمحارة ، مهما انغلقت فهى لا تكف عن احالة التجربة بالاضافة والاعادة والتعديل الى لؤلؤة ، الى ماسة

ثمينة من ماسات الخبرة الانسانية المركزة والمكثفة والمصنوعة بصبر داخل تلافيف الحياة ، وقد استطاعت نفس عم حسن الخالية من المهبطات والمعطلات ومخصصات الانا اللزجة أن تمتلىء وتستوعب عددا لا يعد ولا يحصى من كنوز النفوس الأخرى وفوق ما يمكنها تقديمه وعرضه من نماذج استطاعت نفس عم حسن أن تقوم بدورها كصانعة لآلىء ، وماسات ، وأن تحيل ما احتوته نفسه من تجاربه ومن الآلاف المؤلفة من تجارب الآخرين الى ما يشبه برج مجوهرات الامبراطورية البشرية .. الى متحف يدير مجرد التجوال فيه الرءوس . ولا شك أن المتع كثيرة وكلها حلوة ، والمرأة جميلة ممتعة ، وقعدة العسكرى فى البندر مع اخوانه يدور عليهم الشىء او يدور بهم متعه .. ولكن العسكرى فى حياته كلها .. لم يجد متعة أعظم من أن يجلس الساعات الى عم حسن ، ويسمعه بمفرده أو معه الآخرون وهو يحدثهم ومن ذات نفسه يفرجهم على عوالم غريبه رائعة ، وليالى وكأنها مسحورة ترى من فنجان ، وايام وأحداث وكأنها اغترفت من أكداس الروايات ، مع أنه فى كل ماكان يتحدث به لم يكن هناك اثر للخيال ، اذ لم يكن هناك داع للخيال ، فما رآه رأى العين أغرب مما يراه الآخرون رأى الخيال .. لاشك أن المتع كثيرة ولكن يبدو أن أمتعها جميعا وأحلاها هى متعة أن تعرف .. متعة أن تعلم ماتجهله أو تزداد علما بما تعرفه ، وكل ما يحدث عنه عم حسن دائما جديد غير مطروق ، أناس وكأنهم ليسوا من جنس الناس ، وانما من نوع آخر لا يتبدى الا لعم حسن .. أو كأنهم الناس ولكن أشياء منهم مغلقة تفتح بكلمة سر لا يعرفها الا الرجل العجوز ..

وجده العسكرى فى ذلك اليوم عابسا ، شديد العبوس .. حتى لقد استغرب أن يمتلك من كان مثله القدرة أن يعبس بهذه الشدة .. وحين سأله عما به لم يشأ أن يتحدث وكأنه لا يرى فائدة فى الحديث ..

ولكنه تحت الالحاح قال أنه حدث ما كان وسيظل دائما أبدا يخشاه ، فقد جاء الرجل وطلب منه مغادرة المكان ..

أى رجل وبأى حق يطلب ما يطلبه ؟ ٠٠

قال أنه جاء هذه المرة بحجة أن الارض التى اقام فوقها عشته أرضه وأنه يعطيه مهلة الى الغد لينتقل منها ٠٠

وطمأن العسكرى خاطره قائلا أنه لابد نصاب ، أو سلطه أحد أصحاب العشش الاخرى ٠٠

وهنا لابد تدرك أن ثمة عششا أخرى وغرزا قد أقيمت بعد مجىء عم حسن ، فهكذا دائما شانه ، ما أن يحل بالمكان المهجور ويبدأ فى تقديم مشروباته الى الغادين والرائحين على الطريق ٠٠ أصحاب الطريق كما كان يسميهم عم حسن الذين قد تتصور أنهم قلة فى حين أنك لا يمكن ان تتبين كثرتهم الا اذا أقمت لهم مكانا للشراب والراحة ٠٠ مكانا يصبح ككشك المرور الذى لاتلمح قبله أثرا لعربات ولا تلمح بعده ، وانما عنده فقط وعند العشة تظهر العربات ، ويظهر الناس ويتكشف عنهم الفراغ الذى كان يخفيهم ، وعنده يلتقطون أنفاسهم برهة استعدادا لاختفائهم القادم فى الفراغ ٠٠ أصحاب الطريق كثير ، لابد لهم أسبابهم الخاصة لسلوك الطريق ولكنك تعجب حين يخرج لك عم حسن يعرض كنوزه متحدثا عنهم قائلا ان فيهم صاحب الحاجة والهدف لاشك ، ولكن الغالبية سيتعبك حتما ان تحاول معرفة أهدافهم ولماذا يسيرون ، ان معظم الناس أجناس قانعة ميالة الى البيوت وحياة البيوت وعالم البيوت ولكن الدنيا فيها آخرون ٠٠ فيها القائلون لانفسهم وللعالم ٠ : بلاد الله لخلق الله ومن بلد الى بلد يرحلون ، وعلى الطريق يشربون ويأكلون وأحيانا على نفس الطريق يموتون ٠٠ أصحاب الطريق وسكانه دائما فرادى ودائما على الطوى ونادرا مايتكلمون وليسوا أبدا مجذوبون أو مجانين وان كان سلوكهم هذا قطعا سلوك مجانين ٠٠ الشىء الدائم أن وراء السير الطويل ٠ مسيرة العمر قصة انتهت حين وضع كل منهم قدمه على أول الطريق ، وقد يكون للطريق أول ولكن أبدا ليس له آخر ، وكأنما بحثهم الدائب عن آخر الطريق ، والعمر يمضى وأعمار كثيرة تمضى قبل أن يصل أى منهم السالكين سلوك المجانين ، أو أى منا نحن السالكين مسالك العقلاء ، آخر الطريق ، دائما نلتقى ، عقلاء

ومجانين ، وراجلين وراكبين وأفندية وسواقين وهاربين وباحثين ومخبرين ومجرمين ومطاردين و مطرودين عند عم حسن عند تقاطع الطريق ، ونأنس باللقاء ، ونتعارف ونتحاب ونتذاكر ويسمى بعضنا البعض : رفاق الطريق ٠

وهكذا يحدث دائما ألا تبقى عشة عم حسن الذى يكتشف بها التقاطع المهجور ، وحيدة لفترة اطول ، اذ لاتلبث عشة أخرى أن تقام ، وان كان صاحبها ليس فى وحدانية عم حسن وانسانيته وطيبته بل حتى نظافته الا أنه لا يعدم زبائن آخرين ، وجعلنا لكل شىء سببا ، ولكل طالب رزقا ، ولكل عشة مهما كثر عدد العشش زبائن من رفاق الطريق ٠٠

ودائما ماتبدأ الغيرة من عم حسن ورواده الاكثر ، تأكل القلوب ، وعلى أقل سبب تحدث المشاحنات ، وفى البقعة المهجورة والمقطوعة الصلة بكل أسباب الحياة والاحياء ، سرعان ماتبدأ فيها أول البوادر ، وكما تستدل على الاسد من رائحة بوله المنكر ، تبدأ رائحة نظام الانسان الفاسد تفوح ، ومن بعيد وسط سكون العصارى المطبق تسمع صوتا غيرغريب عليك تتلاحق عواءاته من بعيد ٠٠ تسمع الصوت وتشم الرائحة ، الخناقة ، تحسبها كلابا على جثة ، ولكن الرائحة والخناقة أكثر بشاعة ٠٠ لابد أنهم بشر على لقمة ٠٠

فاذا سمعت طرفا واحدا هو الماضى فى زعيقه وعوائه ، بينما الطرف الآخر صامت صمتا تاما وكأنه ليس المقصود ، فاعلم أن الخناقة مع عم حسن ، وأن الآخر رغم أنه جاء الى التقاطع بعده ، ولولا عم حسن ماجرؤ على التفكير أو البقاء ، الا انه محموم ينفجر بغضبه ٠

ولكن هؤلاء لم يكونوا يسببون للرجل العجوز الطيب أى ازعاج ، بالعكس كان دائما يقابل عويلهم بالابتسام ٠٠ ابتسام الفرحة ، اذ معناه انه عمرت الحتة ، وليس مايبهج عم حسن أكثر من أن يدرك ، وهو الجواب الارض القفر والساحات المهجورة ، ان قطعة مهما بلغ صغرها من الدنيا ، ومن مصر أم الدنيا ، قد عمرت ٠٠

***

ولكن ، ان يعبس عم حسن ، وان يبدو وجهه شديد العبوس ، وان يظل هكذا حتى بعد محاولات العسكرى المستمرة لتطييب خاطره معناه ان فى المسالة شيئا آخر غير عادى ..

واعتقد العسكرى أن عم حسن رجل طيب ومسالم ، ومن عادة هؤلاء أن يزعجهم التهديد ، وهكذا أخذ العسكرى على عاتقه الا يتكرر المشهد ، وأن يظل وراء من هدده حتى يجبره على المضى اليه وطلب غفرانه . وبدأ يعيد السؤال عن الرجل ، ويطلب من عم حسن وصفه وتذكر من اين جاء والى اين ذهب . ولم تعجبه الاجابات ، فقد جاءت كلها غامضة محيرة وكأنما عن عمد ، أو من شدة الخوف – يحاول عم حسن تضليله ، وبهذا واجه عم حسن وكان ان ابتسم الرجل وكأنى بقلبه ابتسم فهو لم يكن يحاول أن يخفى عنه شيئا ، وانه لايفعل أكثر من أن ينقل اليه كل ما يعرف ، فهو لم يع بالضبط من أين جاء الرجل فقد افاق فوجده أمامه ، ولا الى أين ذهب فما كاد دمه يتغير لكلامه ، حتى كان فى ثورة الغضب قد اختفى ، وهو لايذكر ماذا كان يرتدى ، فقد اضاع الغضب للحظة الرؤيا ذاكرته ، غير ان ما ادهش العسكرى ومنعه عن متابعة بقية الحديث وعن القاء أى سؤال ، ان عم حسن فى كلامه عن الرجل كان وكأنما يتكلم من الذاكرة ، وكأن مافى الذاكرة اقرب اليه مم ، منذ دقائق ، حدث ..

كان وكأنما يتحدث عن شخص يعرفه تمام المعرفة ، عن شخص لايمكن ان تكون تلك هى المرة الاولى لرؤيته .. وحتى حين واجهه بهذا سكت ولم يجب ، وآخر كلمة قالها العسكرى قبيل ان يغادره ان طلب منه ، اذا جاء الرجل ، أن يشير له وبناديه ، وليدعه حينئذ يتكفل به ..

وهز عم حسن رأسه ، وكان وجهه لايزال محتقن الملامح فى اكتئاب ..

***

وكاد العسكرى يغضب حين علم – من عم حسن نفسه – أن الرجل جاء ، وانه هذه المرة انذره ، ومضى قبل ان يستطيع ان يشير له او يناديه . كيف يمضى قبل أن يستطيع ؟ أهو كائن مسحور ..

انه هكذا – مضى عم حسن يخبره – عمرى مارأيته قادما ولا عرفت كيف يغادرنى ..

عمرك – أفى المسالة أعمار ؟

بالطبع – قالها عم حسن ببساطة .. فليست هذه أول مرة انما دائما وراءه أنى يذهب ليسكن حتى يبدأ الآخرون يفدون ويقيمون العشش . ومن لحظتها يبدأ يأتى ولا يتـــركه حتى يذهب ..

وللعسكرى ألف حق حين أحس ان عم حسن يبالغ ليس الا ، وأنه من امتداد حياته الطويلة بعيدا عن المشاكل يجعل من الرجل جنيا أحمر . ووصاه وألح عليه أن جاء فقط أن يناديه ، ماعليه الا أن يشير له ويناديه ..

ولم يأت الرجل فى اليوم التالى ، هكذا أكد عم حسن . لا ولا اليوم الذى يليه ، الى العاشرة حين كاد جاز اللمبة (الشيخ على) يفرغ وسهرته التى نادرا ماتمتد أكثر ما تنتهى ، ويخمن من من زبائنه قرر قضاء الليلة عنده ومن سيرحل ، هكـذا فى ظلمة الليل ، ودون خوف من مجهوله وظلامه ، وكأنه فى بيته ، صاحب الطريق الى العاشرة لم يكن قد جاء ..

وفى اليوم الثالث ، كانت كوب الشاى التى قدمها للعسكرى عقب الغداء ، وكان رجاؤه أول مرة يسمع فيها هذا الرجاء ، أن يساعده على الرحيل ..

وحين كان عم حسن يأخذ الكوب الفارغ ويمضى ويتمتم ، لم يكن مايتمتم به كلمات شكر كما اعتقد العسكرى ، كانت كلمات ضيق وتبرم بالموقف الذى أصبح فيه ، فها هو العسكرى يقف بجواره مصمما على بقائه وعلى أن باستطاعته الدفاع عنه فى حين أنه أعرف الناس ان أحدا لم يستطع – مع هـذا الرجل – أن يساعده وأنه حاربه ويحاربه دائما وحيدا ، ولا فائدة من اطالة النضال .

وبعد دقائق كان ينادى بأعلى صوته ياشاويش ..

وفى بضع قفزات كان العسكرى قد ترك المكتب والدفتر والقيد والعربة النقل الدائر موتورها فى ازعاج ، وأصبح أمام عم حسن ، يسأل : هو فين ؟!

وبيأس تام أجابه عم حسن أنه ذهب ..

كيف ومتى وهل من المعقول أن يكون قد اختفى تماما ولم يمر بين ندائه وبين مجيئه سوى زمن كلمح البصر ؟ ..

ـ مش قلتلك .. أهى دى عوايده .

ولاول مرة ، وبنظرة مختلفة تماما حدق العسكرى فى عم حسن ، فلم يكن هناك الا تفسير واحد ، ان هذا الرجل العظيم مجنون لابد يتصور أشياء لا تحدث ..

وبنفس النظرة مثبتة على وجهه وبالذات على عينيه الواسعتين العسليتين .

ـ انت متأكد ان فيه راجل بالشكل ده ..

وعلى الفور فهم عم حسن أو ابتسم فى رثاء ..

وانقضت الليلة ، وفى الصباح ، والى الساعة الثامنة لم يكن قد جاء عم حسن له بشاى الصبح أو بدا له أثر . ودب القلق فى قلب العسكرى مخافة أن يكون قد ذهب ، لولا أنه من مكانه كان يلمح العشة وجلبابه المنشور فوقها منذ الامس ، ولم يكن باستطاعته التحرك ، فبجواره كان ضابط ينتظر ، وعليه أولا أن يجد له عربة ذاهبة فى اتجاه العاصمة ، وهناك ، قرب العاشرة جاءت العربة ، وحتى قبل أن تتحرك بعيدا كان هو قد وصل الى جوار العشة وقبل أن يستدير الى الباب كان ينادى عم حسن ، وخيل اليه انه يسمع أنينا . وفى الداخل كان عم حسن راقدا وحول عينيه كدمه زرقاء كبيرة وصدغه وارم وواضح من هيئته أن اعتداء قاسيا قد وقع عليه . وردا على أسئلته الكثيرة ، واستفساراته ، حدق فيه عم حسن بعينه غير الوارمة وحدق فيه مليا قبل أن يقول : صدقت بقى انه بييجى ..

وفتح العسكرى فمه ولكنه عدل عن النطق ، ودون أن يغير لهجته استطرد عم حسن : مش تعمل فى معروف بقى وتكلم لى سواق ..

قضى العسكرى الى الظهر ودمه يغلى تارة وجسده يرتعش تارة أخرى . انه بطبيعته لايتحمل أن يرى أحدا ضحية ظلم مهما صغر ، فما بالك والضحية عم حسن ، أحب وأقرب من أنست اليه نفسه فى الحياة ، لقد قضاها كالقط الضال بريا يكاد يصل حد التوحش من الصعب عليه أن يألف ومن الصعب أن

يأتلف ، حتى مع أخيه الاكبر الوحيد ، بل وحتى والمرأة بين ذراعيه وقد ذابت كل الفواصل عمره ما أحس أن ألفة حقيقية قامت بينه وبينها ، حتى لو كانت (نظلة) زوجته ، والاخرى التى جرى عليها طويلا واشتاق لها كثيرا وأحبها وكانت وبالصدفة اسمها (نظله) أيضا ، الانسان الوحيد الذى اخترق حجبه وهد جدرانه واقترب أكثر مايمكن من قلبه وروحه ، وقرب قلبه وروحه الى الدنيا والناس .. كان عم حسن ..

عم حسن الذى فى أيام ارتبطت به نفسه الى الدرجة التى لو أصر فيها على الرحيل لوجد نفسه يرحل معه ، دون أن يستطيع لها منعا .. الراقد الآن يتألم متورما ومضروبا من ذلك الرجل ، مهما كان وليكن انسيا أو جنيا ، وليكن ابليس بنفسه وبكل جبروته ؟

كان العسكرى ، ولنسمه صميدة يعمل ثمانى ساعات ويستريح مثلها ، ويبادله العمل والراحة زميله ، زميل لا علاقه له بكل ماذكرنا ، مالاحظه ولا كان على استعداد للاهتمام به ، فهو فى السن أصغر . وتلك أول مرة يتغرب فيها عن زوجته وابنه الحديث الولادة ، وهو دائما ، بالخواطر معهما ، لم يحس للحظة واحدة بما على قيد خطوات منه يحدث ..

وقضى صميدة ، الاربع والعشرين ساعة بجوار صاحبه العجوز الذى رقد منها نصفها وعاد الى طبيعته من نصفها الآخر وجلس وأكل وتحدث . وصميدة صامت يجتر الغيظ ويستعيد بغضب ما يفعله بالرجل حين يجىء . ولكن أناسا كثيرين جاءوا وذهبوا دون أن يبدو للرجل أثر ، حتى أغمض مرة عينيه ، ورغم أن اغفاءته لم تطل أكثر من لحظات الا أنه كان قد حلم فيها أن الرجل جاء ، والعجيب أنه لم يكن كما تصور أبدا شيطانى الملامح يقدح الشر من عينيه ، كان يبدو كالنوع (السهتان) من الرجال ، النحيف ، القصير ، وكان وجهه (سادة) تكاد لولا وجوده أن تعتقد أنه بلا ملامح ، وربما وجهه الخالى من الانفعال ذلك هو ماجعل صميدة يحس بالضيق الشديد منه وبالرغبة الملحة فى قتله ، وهو صعيدى وعربى يعرف معنى القتل ويفهمه ، رغبة بلغ من شدتها والحاحها انها أيقظته ، وحين صحا وجد عم حسن يحدق فيه بعين مفتوحة ونصف الأخرى الذى أصبح نادرا

على فتحه ، وظل يحدق فيه لبرهة تم قال : شفته ··
وكاد يقول : شفته ، لولا ان عقله ارتبك وتساءل : كيف عرف عم حسن انه كان يحلم ، وان الرجل جاءه فى الحلم ··
وسأله : ايش عرفك انى شفته ··
فقال عم حسن : ماهو كان هنا ولسه ماشى ··
فقال صميدة : انت راخر حلمت به ·
فاستنكر عم حسن : حلمت ايه · أناصاحى · وجه وافتكرتك شفته واستغربت انك ماقلتلوش حاجة ··

واحس صميدة بالخوف ، من المرات النادرة القليلة التي أحس فيها بالخوف الى درجة كاد يخبر عم حسن أنه يوافق أخيرا على رغبته وانه سيكلم له أول سائق يمر ··
ولكن العناد ، ذلك الشيء المركب فينا يفسد علينا لحظات الاستسلام للواقع ، ثاروأبى · وفى ومضة كان صميدة قدقرر اما هو او ذلك الرجل ··
وانتقل صميدة الى عشة عم حسن يقضى فيها ساعات راحته، والعشة نفسها نقلها بحيث أصبحت تواجه الكشك تماما ،ولو استطاع لجعلها ملاصقة له ··

وأصبح على عم حسن ألا ينتقل من مكانه الا اذاعرف صميدة وتابعه ان لم يكن بنفسه فبعينيه ، وأصبح على صميدة أن يظل مفتح الاعين لايغمض له جفن ، اذا نام كان على عم حسن أن يظل مستيقظا قابعا بجوار زميله ، ولا ينام عم حسن والا وحماية صميده تحوطه ، ومع هذا ما يكاد الانتباه يغفل حتى يرفع عم حسن يده مستجيرا ، ويعرف صميده أن الرجل جاء ومضى كما تاتى ريح وتمضى وأنه لابد همس لعم حسن مثلما يهمس كل مرة بتهديده ، وبأن صبره قد نفد وانه لامحالة قاتله ·· والعناد ، ذلك الشيء المستبد الخارق يزداد نموا كالمارد العملاق فى جوف صميده حتى ليصبح هو الذى يسيره ويخضعه ، وكلما ازداد استبدادا وازداد التهديد حدة كلما أصبح على حركات عم حسن وسكناته أن تخضع أكثر واكثر حتى ليكاد يشير لصميدة لينبهه أنه يريد فتح الفم أو التنفس ··
وكان طبيعيا أن تخلو عشة عم حسن من رفاق الطريق ، ليس فقط لكل ماتقدم ، وانما لأن صميدة قد أصبح يتوجس

لدى قدوم أيهم ، وبعينيه النفاذتين يتفحص ملامح وجهه ليعرف قربها أو بعدها عن الملامح كما رآها وكما أصبح يعتقد أنها قريبة الشبه جدا من ملامح أى قادم يراه ، أو على الاقل باستطاعه ايهم أن يحيل ملامحه اذا أراد لتصبح (سادة) كريهة كملامح ذلك الرجل الكريه ·
وفى صباح جميل ، كل ما فيه جميل ، الا ماهما فيه . مال عم حسن على صميدة وقال :

– ح نقعد كتير على كده ؟
– لغاية مايبان ونخلص عليه
– بعد يوم ·· اتنين ·· سنة ·· سنتين · ؟
– حتى ولو بعد عشر سنين
– طيب معاك ، ساعتها صحيح ح نخلص عليه انما احنا ح نكون رخرين خلصنا ،تعرف مين ساعتها حيبقى انتصر ·· العند ·· ·· احنا ح نكون متنا من زمان واللى عايش فينا العند وزى ماخلص عليه ·· خلص علينا ·· سيبنى أمشى ··
– وتروح فين ؟
– دنيا الله واسعة ياأخى ·· واذا كان فى الحته دى عدو فالطريق مليان أصحاب ورفاق ·· الدنيا حلوه يابنى وحرام تعادى فيها حتى اللى يعاديك ·· عايز تغلبه سيبه ينفلق ويعاديك، واوعى تعاديه انت لتخسر نفسك ·

***

وذات يوم ، وصميدة نائم ، كان عم حسن يلقى بنفسه مرة اخرى الى أيدى الناس ، والسائق يساعده على جمع حوائجه ··
وحين استيقظ صميدة ولم يجد عم حسن أو عشته أصابه ذهول أوقف تفكيره ، كأنما أحس أنه فجأة فقد كل ماله على ظهر الدنيا · وحين أفاق ، أحس لومضة ، بالارتياح ، فقد شعر أن العناد ينسحب من جسده ، ومعه تنسحب ملامح الرجل الكريه التى لم تغادر خياله لحظة ، تنسحب معه فتهزمه ، لومضة أحس أن الحياة قد بدأ يعود لها طعمها الحلو ، كان عم حسن قد ذهب حقيقة وذهب معه سحره ، ولكن المكان عند التقاطع قد عمر ، ودبت فيه الارجل وحفل بالعشش التى كانت احداها قد بدأت



تتحول الى بناء ذى سقف وأبواب . لومضة عابرة احس بكل هذا
غير أنه حين افاق تماما من ذهوله حاول أن يجرى وأن يسال ومن
السائقين والعابرين يستقصى ، لا ليعرف مكانه البعيد ، وانما
على امل ، أن يعرف مكانه ليترك كشكه ويذهب خلفه ، والى
الآن لم يزل صميدة مؤمنا وواثقا ان عم حسن لابد حى يرزق
ناصبا عشته عند تقاطع ما من الطريق ، ولا تزال كلما مرت به
عربة نقل ، بعد أن يأخذ أرقامها ويرد تحية سائقها يساله ان
كان قد راى أو التقى بعم حسن ، وبعضهم يقول انه من سنة رآه
وآخر من شهور ، واجابات كثيرة يظفر بها ، مرة يجده في
دمنهور وأخرى فى طريق البدرشين .. آه .. لو فقط يعثر له
على مكان أكيد ..

يناير ١٩٦٥

« انتهى »



طبع بمطابع
مؤسسة روز اليوسف